المكتبة الصوفية

غور الأمور

للإمام الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

ضبط وتحقيق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح
أ.د. أحمد عبده عوض

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعـة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	١٤٧٨٤/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -056 -0



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الذى جاد على كل حى بما إليه حاجته، ووهب الإنسان عقلاً به انكشف القناع عن المجهول، وأشرقت على النفس أسرار الموجودات، وتجلت معرفة صانع الوجود، ومن إليه ينتهى كل موجود.

والصلاة والسلام على المرسل رحمة وهداية للناس أجمعين، المبعوث بالقرآن الكريم، قدوة أهل الحق، والباحثين عن اليقين.

أما بعد

فإن كتاب "غور الأمور" من المصنفات التى تضع المعرفة، وتوضح الطريق أمام السالك، وتضع العلامات المضيئة أمام الناس. والطريق – أساساً ومنهجاً وغاية – يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهذا الطريق جربه السالكون، وثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً.

وكتاب "غور الأمور" وضعه العارف بالله، الحافظ، المحدث، الإمام، المؤذن، الحكيم، الترمذى:

"أبو عبد الله بن محمد بن الحسن بن بشر "الملقب بالحكيم".

ولقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة، لأن التعاليم السلوكية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها المتذوق فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل هى حقائق

موضوعية لها كيانها المستقل، وعالمها الخاص.

ويذكر الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، محقق كتاب "ختم الأولياء" للحكيم الترمذى: "أن حكمة الترمذى تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية، وفى هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيراً فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة، ودرجات المعرفة".

والحكيم الترمذى كما لُقب بلقب الحكيم، فإنه نسب إلى ترمذ، مسقط رأسه، حيث قضى بها أكثر سنين عمره، ولفظ أنفاسه الأخيرة فيها..

وفى دائرة المعارف الإسلامية يقول توماس أرنوك: "ونجد بين الأبنية فى أطلال المدينة القديمة لترمذ ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى".

وولد الحكيم الترمذى سنة ٢٠٥هـ، وتوفى سنة ٣٢٠هـ حسب ما وصلنا إلين من تحقيق من خلال ما ذكره الذهبى فى "تذكرة الحفاظ"، وابن حجر فى "لسان الميزان". وفريد الدين العطار فى "تذكرة الأولياء"، ودار شكوه فى "سفينة الأولياء "وحاجى خليفة فى "كشف الظنون".

ويذكر صاحب "تذكرة الأولياء": أن الشيخ الترمذى كان قد عقد النية فى أول أمره، على الرحلة لطلب العلم، وفى رفقة اثنين من إخوانه وفى أثناء ذلك مرضت أمه، فقالت له: يابنى، إنى امرأة ضعيفة، لا عائل لى، ولا معين يعيننى، وإنك المتولى لأمرى، فإلى من تكلنى وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه فى سبيلهما..

ثم مضى على ذلك بعض الوقت، فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاءً شديداً، ويقول: ها أنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابى، وقد حصلوا

على العلم، إذ به يرى أمامه فجأة شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكائه، فأفضى إليه الفتى بحاله، فقال له الشيخ: ألا أعلمك في كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك، فأجابه الفتى إلى ذلك.

واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام، ثم عرف الترمذي بعد ذلك أن الشيخ هو "الخضر" عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه".

ويقول الحكيم الترمذي في رسالة خاصة بنشأته: كان بدو شأني أن الله تبارك اسمه قيض لي شيخي، رحمة الله عليه، من لدن بلغت من السنة ثمانياً، يحملني على تعلم العلم، ويعلمني ويحثني عليه، ويدأب ذلك في المنشط والمكره، حتى صار ذلك لي عادة وعوضاً عن الملعب في وقت صباي.

فجمع لي في حداثتي علم الآثار، وعلم الرأي، حتى إذا قارب سني سبعاً وعشرين أو نحوه، وقع على حرص الخروج إلى بيت الله الحرام، فتهيأ لي الخروج فوقفت بالعراق طالباً للحديث، وخرجت إلى البصرة، فخرجت منها إلى مكة في رجب، فقدمت مكة في بقية شعبان، فرزق الله المقام بها إلى وقت الحج، وفتح لي باب الدعاء عند الملتزم في كل ليلة سحراً، ووقع على قلبي تصحيح التوبة، والخروج مما دق وجل، وحججت، فرجعت وقد أصبت قلبي.

وسألته عند الملتزم في تلك الأوقات أن يصلحني ويزهدني في الدنيا، ويرزقني حفظ كتابه، وكنت لا أهتدي لشيء من الحاجات غير هذا، فرجعت وقد ألقي على حرص حفظ القرآن في طريقي، فأخذت صدراً منه في الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله علي بمنه، حتى فرغت منه، فأقامني ذلك بالليل، فكنت

لا أمل من قراءته. إنه كان ليقيمني ذلك إلى الصباح، ووجدت حلاوته.

فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب - تبارك اسمه - والتقاط محاسن الكلام، من طريق العظات، وما يستعان به على أمر الآخرة، واسترشد في البلاد، فلا أجد من يرشدني في الطريق، أو يعظني بشيء أتقوى به، وصرت متحيزا لاأدرى أى شيء يراد لى.. إلا إنى أخذت في الصوم والصلاة، فلم أزل كذلك حتى وقع في مسامعي كلام أهل المعرفة.

ووقع إلى كتاب الأنطاكي، فنظرت فيه، فاهتديت لشيء من رياضة النفس، فأخذت فيها، فأعانني الله، وألهمت منع الشهوات نفسي، حتى صدرت كأني أعلم على قلبي الشيء بعد الشيء، حتى ربما كنت أمنع نفسي الماء البارد، وأتورع عن شرب ماء الأنهار، فأقول: لعل هذا الماء جرى في موضع بغير حق، فكنت أشرب من البئر، أو من الوادي الكبير.

ووقع على حب الخلوة في المنزل، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف في تلك الخربات والنواويس حول الكورة[1] .

فلم يزل ذلك على دأبي، وطلبت أصحاب صدق يعينونني على ذلك، فعز على، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات.

فبينما أنا على هذه الحال إذ رأيت - فيما يرى النائم - كأني أرى رسول الله، ﷺ دخل المسجد الجامع في كورتنا، فأدخل على أثره، فألزم اقتفاء أثره، فما زال يمشي حتى دخل المقصورة، وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كأني أكاد ألتزق بظهره وأضع خطاى على ذلك الموضع الذي يخطو عليه، حتى دخلت

---

(١) النواويس: المقابر - والكورة البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

المقصورة، فرقي المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقي درجة رقيت على أثره، حتى إذا استوى على أعلاه درجة قعد عليها، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه، ويميني إلى وجهه، ووجهي إلى الأبواب التي تلي السوق، وشمالي إلى الناس، فانتبهت من لومي وأنا على تلك الحال.

ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة، بينما أنا ذات ليلة أصلي، فثقلت، فوضعت رأسي في مصلاة جنب فراشي، إذ رأيت صحراء عظيمة، لا أدرى أى مكان هو، فأرى مجلساً عظيماً، وصدراً مهيئاً لذلك المجلس، وحجلة[1] مضروبة، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك الستر، فكأنه يقال لي: إنه يذهب بك إلى ربك، فأدخل تلك الحجب، فلا أرى شخصاً ولا صورة.

إلا إنه وقع في قلبي أنني لما دخلت وقع على الفزع في ذلك الحجاب، فأيقنت في منامي بالوقوف بين يديه، فما لبثت أن رأيت نفسي خارجاً من الحجب، بالقرب من باب الحجاب، واقفاً وأنا أقول: عفا عني، وأجد نفسي قد سكنت من الفزع، فدام لي شان رياضة النفس من تجنب الشهوات، وقعود في البيت على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء، فانفتح له شئ بعد شئ ووجدت في قلبي قوة وانتباهاً، وطلبت من يعينني، فكان يكون لنا اجتماع بالليالي نتناظر، ونتذاكر، وندعوه ونتضرع بالأسحار.

فاصابتني غموم من طريق البهتان والسعايات، وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وهان ذلك كله عليّ، وسلط عليّ أشباه ممن ينتحلون العلم، يؤذونني ويرمونني بالهوى والبدعة، ويبهتون[2] وأنا في طريقي، ليلاً ونهاراً، دءوباً

---

(١) الحجلة : الستائر.

(٢) يبهتون: يدهشون.

دعوياً، حتى اشتد البلاء، وسار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى بلخ، وورد البلاء من عنده، من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وتقولوا على[1] ما لم يخطر قط ببالى، حتى صرت إلى "بلخ" وكتب على قباله ألا أتكلم فى الحب.

وكان ذلك من الله – تبارك اسمه – سبباً فى تطهيرى، فإن الغموم تطهر القلب، وذكرت قول داود ﷺ أنه قال: « يارب أمرتنى أن أطهر بدنى بالصوم والصلاة، فبم أطهر قلبى. قال: بالغموم والهموم ياداود » .

فتواترت على الغموم، حتى وجدت سبيلاً إلى تذليل نفسى، فكنت أراودها على أمور قبل ذلك، من طريق الذلة، فتنفر ولا تطاوعنى، مثل ركوب الحمار فى السوق، والمشى حافياً فى الطرق، ولبس الثياب الدون، وحمل شئ مما يحمله العبيد والفقراء.

فيشتد علىّ ذلك، فلما أصابتنى هذه المثالة والغموم ذهبت شرة [2] نفسى، فحملت عليها هذه الأشياء، فذلت وأطاعت حتى وصل إلى قلبى حلاوة تلك الذلة.

فبينما أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر، فى ضيافة لأخ من إخواننا، فلما مضى من الليل ما شاء الله، رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبى فى الطريق فتحاً لا أقدار أن أصفه.

وكأنه وقع فى قلبى شئ طابت له نفسى والتذت به، وفرحت حتى مررت،

---

(١) تقولوا : اختلقوا كذباً.

(٢) الشرة : الحدة.

فما استقبلني شئ هبته، حتى إن الكلاب ينبحن في وجهي فأنس لنباحهن من لـذة وجدت في قلبـي.. حتى بـدا لي أن السـماء بكوكابهـا وقمرهـا صـارت إلى قـرب الأرض وأنا فيما بين ذلك أدعو ربي، ووجـدت كـأن قلبـي نصـب فيـه شـئ، فـإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطني، التوى بعضه عـن بعـض مـن شـدة اللـذة واعتصر، وانتشرت في صلبي وعروقي تلك الحلاوة، وكان يخيـل إلى أن قربـي مـن مكان قرب العرش.

فما زال ذلك دأبي كل ليلة إلى الصباح: أسهر ولا أجد نوماً، فقـوى قلبـي على ذلك، وأنا متحير، لا أدرى لما هذا، إلا أنـي ازددت قـوة ونشـاطاً فيمـا كنـت فيه.

وهاجت بالبلادفتنة وانتقـاص أمـر، حتى هـرب جميـع مـن كـانوا يؤذونـي ويشنعون عليّ في البلاد، وابتلوا بالفتنة، ووقعوا في الغربة، وخلـت البـلاد منهـم. فبينما أنا كذلك إذ قالت لي أهلي: إني رأيت في المنام كان قائماً في الهـواء خارجـاً من الدار في السكة، في صورة رجل شاب، جعـد، عليـه ثيـاب بيـاض، لـه نعـلان، ويناديني في الهواء، وأنا في الصفة بحذائه: أين زوجك؟ قلت: خرج، قال: قولي لـه: إن الأمير يأمرك أن تعدل، ثم مر.

فلم يأت على هذه مدة، حتى اجتمع الناس ببابي من مشايخ البلد، من غير أن أشعر بهم، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم فكلموني في القعود لهم.. وقـد كـان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمري عند العامة قبحاً كنت أتوهم أنهم السقم أكثرهم، لما كانوا يذيعـون(*) هـؤلاء علـي مـن الكـلام القبيـح، ويشـنعون أمـري، ويرمونـي

(*) هكذا في الأصل، والصواب: لما كان يذيع، لأن واو الجماعة لا تلحق الفعل إذا كان فاعله جمعاً.

بالبدعة من غير أن يكون ذلك من شأني أو توهمته قط، فما زالوا يكلمونني في ذلك حتى أجبتهم إلى القعود، فذكرت لهم من الكلام كأنه يغترف من البحر، فأخذت مني القلوب مأخذاً.

واجتمع الناس، فلم تحتمل دارى ذلك، وامتلأت السكة والمسجد، فلم يزالوا بي حتى مدوني "جرونى" إلى مسجد، وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة، ووقع الناس في التوبة، وظهرت التلامذة، وأقبلت الرياسة والفتن، بلوى من الله لعبده.

ورجع أولئك الأشكال إلى البلاد، بعدما قويت، وكثرت التلامذة، وأخذت القلوب مواعظي، وتبين لهم أن هذا كان منهم بغياً وحسداً، فلم ينفذ بعد ذلك قول وأيسوا. وقبل ذلك كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا أجترى أن أطلع رأسي، فأبى الله إلا أن يبطل كيدهم".

لقد كان الحكيم الترمذى – كما رأيت مما ذكره هو عن نفسه – كان رجلاً طلعة، مولعاً بالبحث عن الحقيقة، والسعي وراء اليقين الذى ينشرح به الصدر، ويطمئن القلب.

ولايخفى أن رسالة "كيفية السلوك إلى رب العالمين "للحكيم الترمذى، التى كانت حبيسة خزائن المخطوطات، سوفى تضع الباحث على قضايا جديرة بالاهتمام.

وأن الباحث في ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم، لقبوه بألقاب علمية كثيرة، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم والسلوك والخلق

والطريق. وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم، فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب، لها دلالتها وحقيقتها.

فالسبكي في طبقات الشافعية ذكر عنه بأن "المحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذي، الصوفي، صاحب التصانيف"[١] .

والذهبي في "تذكرة الحفاظ" قال عنه: "إنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف"[٢]

وابن حجر في "لسان الميزان" ذكر من ألقابه: "المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبد الله"[٣] .

"ومن الألقاب الملازمة التي لا يكاد يذكر بدونها، والتي لا تطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه، فهي: الترمذي والحكيم معاً، ويختلف استعمالهما تقديماً وتأخيراً، بل يتغير وضع لقب الحكيم في الاستعمال، حيث يستعمل أحياناً قبل الاسم، وأحياناً بعده"[٤] .

أما لقب الترمذي فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض، منها: أمانة النقل، وتمييز المصادر، ونسبة الشي إلى صاحبه الحق عن اشتباه الأسماء، مع اختلاف البلدان، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه، وغير ذلك من الأغراض العلمية التي لا تكاد تحتاج إلى تنبيه، ولم يثر هذا اللقب شيئاً من

---

(١) السبكي: "طبقات الشافعية" ج٢ ص٢٤٥.

(٢) الذهبي : "تذكرة الحفاظ" ج٢ ص٦٤٥.

(٣) ابن حجر: "لسان الميزان " ج٢ ص٣٠٨.

(٤) الدكتور بركة: "الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية" ج١ ص٥٢.

المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه"[١] .

أما تلقيب الترمذى بالحكيم، فهو أكثر الألقاب استعمالاً، وأعظمها شيوعاً وانتشاراً. وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية، فقالوا فى سبب تلقيب الترمذى بالحكيم: "إنه كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنسانى ، وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم، مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب"[٢] .

وقالوا أيضاً فى سبب تلقيبه بالحكيم: "لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلى الذى جد فى عصره[٣]

.

وقالوا: "لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية، فكان بالتالى الممهد لمذهب العرفان فى التصوف الإسلامى [٤] .

ولاشك أن البحث العلمى يرفض مقولة القائلين: بأن الحكيم الترمذى سمى حكيماً. لأنه بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية.." وهذا القول غير دقيق، لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣هـ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤هـ -

---

(١) الدكتور بركة: "الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية" ج١ ص٥٢.

(٢) الحكيم الترمذى: كتاب الرياضة وأدب النفس، تحقيق الدكتور احمد السايح ط الدار المصرية اللبنانية.

(٣) الحكيم الترمذى: حقيقة الأدمية ، تحقيق الحسينى، المقدمة ص٧ - مطبعة التجارة بالإسكندرية.

(٤) الحكيم الترمذى: ختم الأولياء، هامش ص٤ مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

وإبراهيم النظام المتوفى عام ٢٥٦هـ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة اليونانية فى عصرهم، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك ، فضلاً عن أن أرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثر.

ومع ذلك فأن العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم، أما الكندى فهو وحده الذى لقب به، بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام، وعلى ذلك فإن إرجاع تسمية الترمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحاً"[١].

ونجد كذلك أن تلقيب الترمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب.. نجد هذا الإرجاع بعيداً، وذلك كما يذكر أحد العلماء: "أن الحكمة غير الطب، وأن الحكيم غير الطبيب.

وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد، فالحكيم قد يكون طبيباً إذا تعلم الطب، فيدعى طبيباً كما يدعى حكيماً، وقد لايكون طبيباً إذا أهمل تعلم الطب، وقد يكون الطبيب حكيماً إذا أعد نفسه هذا الإعداد، وقد يكون خالياً من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد، فلا يدعى بالحكيم، وإذا دعى بالطبيب، على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين. وهو الحكيم، فالجهة بينهما منفكة[٢] .

فالتلقيب بالحكيم لا يحتمل التلقيب بالطب ضمناً إلا بقرينة من القرائن، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه. وقد يكون هذا هو السر فى أن كثيراً من المترجمين للفلاسفة، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفاً وطبيباً معاً، وذلك خوفاً أن يتبادر إلى الذهن أنه كان تلقيب الترمذى الحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا

---

(١) الحكيم الترمذى: علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص٢٣.

(٢) الدكتور بركة: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، ج١ ص٥٥.

بقرينة، وذكر معرفته لأجزاء البدن لايصلح قرينة على ذلك، إذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة"[١] .

ومن هذا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الإغريقية. وقد جد الباحثون فى الوصول إلى معرفة هذه الأسباب، ومحقق كتاب "علم الأولياء" للحكيم قد أرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل، جاء فيها قوله:

١- ولعلنا نرجح السبب فى ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفوس الإنسانية، واستكناه باطنها لمعرفة علة مرضها، وكيفية معالجتها، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية، وفى مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية.

٢- كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الإنسان: مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته، وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة، فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثاً طريفاً كل الطرافة، وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب، وفؤاد ولب، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق.

٣- وكذلك فإن تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ، والمصطلحات تدل على خبرة واسعة، ودراية شاملة بالأشياء وبالأسماء وبالمعانى...

٤- ثم إن كثيراً من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو

---

(١) الدكتور بركة: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، ج١ ص٥٥.

تبسيط رأى، إنما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى، كما تدل أيضاً على خبرة بالنفس الإنسانية، وعلى وعى بالعقل الإنسانى، وكيف أن الإنسان يفتقر دائماً - فى تصديقه بمعظم الأشياء - إلى إستدلالات، وأمثلة من الواقع، لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها، ومن ثم الاعتقاد بها.

فالتجديد كما نعلم يبدأ من الواقع، ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التى استخلصت منها، وينتمى الواقع إلى الفكر انتماء الجزئى إلى الكلى..

٥- ومما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الترمذى بالحكيم، تلك التقسيمات الطريفة للعلم ، وتقسيمه الحكمة إلى عليا ودنيا، ولعله قد وصل فى حياته إلى الحكمة العليا، وحصل على هدفه الأسمى، ومن هنا استحق أن يكون حكيماً لاتساق آرائه مع هدفه منها، ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف[١].

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب "ختم الأولياء" يذكر فى هامش المقدمة: أنه يرى أن لقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة ، لأن التعاليم الصوفية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها الصوفى فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص، وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية، وفى هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيراً فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة"[٢].

---

(١) راجع الدكتور سامى نصل لطف - مقدمة كتاب "علم الأولياء ص٢٣ و ٢٤ ط مكتبة الحرية.

(٢) راجع الدكتور عثمان إسماعيل - مقدمة كتاب "ختم الأولياء" هامش ص٥ ط بيروت.

وقد يكون واحدا من هذه الأمور سبباً في تلقيب الترمذى بالحكيم، وقد تكون كلها، وقد يضاف إليها غيرها، والذى يبدو واضحاً لأهل العلم: أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التى انطلقت من القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ ومادة "الحكمة" موضوع لمنع يقصد به إصلاح.

الحكمة: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، وطاعة الله، والفقه في الدين، والعمل به، أو الخشية أو الفهم، أو الورع، أو العقل، أو الإصابة في القول والفعل، والتفكر في أمر الله واتباعه[١] .

والحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل[٢] ومعرفة آفات النفس والشيطان والرياضيات، وقيل: هى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به[٣] .

والحكمة – عند الحكيم الترمذى – حكمتان، كما أن العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعمل ما ظهر، والحكمة ما بطن منه. وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان: حكمة من العلم به، وهى الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته[٤] .

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات، أما الحكمة فهى العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية.[٥]

---

(١) أنظر الفيروز بادى – بصائر ذوى التمييز ج٢، ص٤٨٧ ز ٤٩١ ط المجلس الأعلى بالقاهرة.
(٢) راجع الشيرازى البيضاوى – أنوار التنزيل ص٥٩ ط الحلبى ١٣٧٥هجرية.
(٣) أنظر الدكتور عبد المنعم الحفنى – معجم مصطلحات الصوفية ص٨٠ ط دار المسيرة – بيروت.
(٤) الحكيم الترمذى – الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شفاء العلل ص٣٣ ط مطبعة حسان.
(٥) الدكتور سامى نصر لطف – مقدمة كتاب علم الأولياء ص٨٣.

ومرتبة الحكمة عند الترمذى تعود إلى: "حكمة تتولد من كثرة التجارب، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة، وهذه تدلك على الآخرة ، وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وأنها الحق لأهلها، وهذه الحكمة تدلك على التقرب والصفات، ووجود بقربة الحق، وهى أعلاها وأجلها.

والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا، وهى أدناها، والثانية على الآخرة، والثالثة على الجود والحق[١].

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق، وهى الحكمة العليا "حيث انكشف كل غطاء دق أو جل، وخشعت النفس لله، وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى، وفتح لهم من الحكمة العليا، قال جل جلاله وعظم شأنه، وفتح وتعالى كبرياؤه، وتقدست اسماؤه، وسمت كلماته، سبحانه بحمده ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [سورة آل عمران – من الآية ١٦٤] .

فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنة، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة، وهى الحكمة العليا، فلما آتاهم من الحكمة العليا عاينوا مافى الملكوت بأبصار القلوب، فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفوس"[٢] .

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل، والحكيم إنسان أعطى ينابيع الحكمة، وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان فى كتاب "نوادر الأصول "للحكيم الترمذى تحت عنوان "فى عثرة الحليم وتجربة الحكيم":

فالحكمة من نور الجلال، فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على

---

(١) الحكيم الترمذى – معرفة الأسرار ص٨٤ و ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى ط النهضة العربية.

(٢) الحكيم الترمذى – علم الأولياء ص١٣٩.

قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهي جائمة متراكمة، ومالم يأخذ بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة، لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات، فكيف تدرك الحكمة، والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم"[١] .

ودلتنا أبحاث العلماء على: "أن لقب الحكيم لا يطلق على كل فرد، بل يطلق على أفراد قلائل من البشر، فهو إذن من الألقاب الإصطلاحية التي تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه"[٢] .

لايخفى أن هذه المعاني الخاصة وجدت عن الحكيم، ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص. فقد كانت آيات القرآن الكريم والسنة النبوية – بشتى ما دار حولهما وما جاء عنهما، ولهما، وبهما من معارف وعلوم – مصدراً أصيلاً وخصباً لآرائه وحكمته، وأقواله، وسلوكه وتصانيفه.

كان مفكراً واسع العطاء، ومن ثم أطلق عليه الحكيم، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التي يحتاج من تطلق عليه إلى قدرات خاصة، وفتوحات إلهية، ومواهب متعددة، ونحسب أن الحكيم الترمذي كان كذلك..

وكتاب "غور الأمور" توجد منه ثلاث نسخ اثنتان منها في مكتبة أسعد أفندى، والنسخة الثالثة في المكتبة الوطنية في باريس.

والنسختان اللتان في مكتبة أسعد أفندى واحدة منهما تحمل عنوان "غور الأمور" والنسخة الأخرى تحمل عنوان "الأعضاء والنفس".

---

(١) الحكيم الترمذي – نوادر الأصول ص٤١٥.

(٢) الدكتور بركة – الحكيم الترمذي وطريقته في الولاية ج١ ٥٦.

والباحث يرى أن عنوان "غور الأمور" هو الصحيح، وقد يكون عنوان "الأعضاء والنفس" من وضع النساخ. ومما يشير إلى صحة التسمية "بغور الأمور" أنه ورد في كتاب "شرح الصلاة ومقاصدها" للحكيم الترمذي اسم كتاب "غور الأمور" وكذلك في كتاب "منازل العباد من العبادة" وقد تم تحقيقة بعناية الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح.

وفي "غور الأمور" ذكر الحكيم الترمذي أنه سيناقش مواضيع لكل منها غور بعيد. وهذا يعطي إشارة واضحة إلى أن التسمية "بغور الأمور" هي أقرب إلى المراد.

وكتاب "غور الأمور" يتناول صفة القلب، وأسمائه، وصفة أحواله، وصفة النفس، وصفة إبليس وجنوده، وبيان سلطانه عليها وأحوالها، وكذلك صفة المعرفة، وصفة النور وصفة أخلاق آدم، وصفة جذور المعرفة، وصفة العقل، وصفة مدائن المعرفة، وتفسير قضايا تتصل بالمعرفة والنفس.

وهو كتاب رائع في موضوعه يعالج قضايا النفس الإنسانية والمعرفة. وقد واجهتنا صعوبات كثيرة. ونحن نقوم بتحقيق هذا الكتاب القيم ومن هذه الصعوبات تلك السقطات، والكلمات غير الواضحة أو المطموسة والتي لم يكن من السهل فك طلاسمها.

ولكن أمكن — والحمد لله رب العالمين — التغلب عليها من السياق المألوف للحكيم الترمذي.

هذا الجهد المضني لم يكن سهلاً ميسوراً لولا طول صحبتنا للحكيم الترمذي وطول المعايشة مع مؤلفاته ومصنفاته. فكان ذلك عوناً على سبر الأغوار.

ويعتبر الحكيم الترمذى مـن أعظـم الشـخصيات الإسـلامية التى يعتز بهـا التاريخ الإسلامى.

فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى. كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى الحضارة الإنسانية قروناً طويلة.

ظهر الحكيم فى فترة حرجة كانت أحوج ما يكون إلى الحكيم. حيث خط المسار، ووضع للنفس المنهاج، حتى تستجيب لنوازعها الخيرة.

وقد ولد الحكيم "أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى"[1] من عائلة تنتمى إلى العرب[2] .

ويرجع أهل البحث أن يكون الحكيم الترمذى قد ولد عام خمسة ومائتين، وإنه عمر مائة وخمسة عشر عاماً وأنه توفى عام عشرين وثلاثمائة للهجرة[3] .

وكان أبوه من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله، واشغلوا بروايته، فقد ترحم له الخطيب البغدادى، وذكر أنه نزل بغداد وحدث بها[4] .

وقد روى الحكيم كثيراً عن والده فى كتبه المتعددة، وكانت أمه أيضاً من أهل الحديث[5]

---

(١) السبكى "طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص١٤٥ الطبعة الأولى البابى الحلبى والذهبى تذكرة الحفاظ ج٢ ص٦٤٥ ط الهند.
والبغدادى هداية العارفين ج٢ ص١٥و١٦ ط تركيا.
وابن حجر لسان الميزان ج٢ ص٣٠٨ ط الهند.

(٢) الحسينى المعرفة عند الحكيم الترمذى ص١٣ ط دار الكتاب العربى.

(٣) الدكتور أحمد السايح منازل العباد من العبادة ص٨.

(٤) البغدادى تاريخ بغداد ج١١ ص٣٧٣ ط الخانجى بمصر.

الدكتور أحمد السايح منازل العباد من العبادة ص٧ ط دار النهضة.

فقد روى عنها، وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث وثبت أنه أخذ الحديث عن بعض مواطنيه [١].

ومن كل ذلك يتبين لنا : أن الحكيم الترمذى فتح عينيه أول ما فتح على حلقات العلم، والحديث، والدرس، وأنه أحيط بهذا الجو النقى. وتلقت مسامعه أول ما تلقت كلمات الله، وأحاديث رسول الله ﷺ يهتف بهما أبوه، كما تهتف بهما أمه.

وإن الباحث فى حياة الحكيم الترمذى العامرة بالعلم يدرك أن طفولة الحكيم لم تكن عادية. لقد فتح عينيه على العلم منذ بدا يدرك، لأن أباه أحد علماء الفقه، ورواة الحديث.

وقد كان أبوه شيخه الأول. ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ فى صباه يقول الحكيم " كان بدو شأنى أن الله تبارك أسمه: قيض لى شيخى - رحمة الله عليه - من لدن بلغت من السن ثمانياً يحملنى على تعلم العلم، ويعلمنى ويحثنى عليه، ويدئب ذلك فى المنشط والمكره، حتى صار لى عادة وعوضاً عن اللعب فى وقت صباى، فجمع لى، فى حداثتى علم الآثار، وعلم الرأى"[٢] .

فكان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ فى تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها. والرغبة فى الاستزادة من العلم. والاستعداد للرحلة من أجل ذلك، كما كانت العادة جارية فى زمانه. والعلم لا وطن به، والرحلة فى طلبه، أمر لابد منه، حتى يتسنى للعلماء اكتساب الفوائد، ومباشرة التلقين، والمحاكاة من

---

(١) الحسينى المعرفة عند الحكيم الترمذى .

(٢) الحكيم الترمذى بدو شأن أبى عبد الله ٢٢ ص١٦.

الفطاحل الأعلام.

وقد أخذ الحكيم الترمذى عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره، والذى يتتبع شيوخه من المحدثين الذى روى عنهم، يجد أنهم كثرة.

ورأينا أن علماء المعاجم والطبقات الذين وضعوا الكلمات فى مواضعها، وكانوا أدرى بسير العلماء، وأعرف بمكانتهم، ومنزلتهم. ورد فى كتبهم، ومؤلفاتهم، ما يوحى بأن الحكيم الترمذى كان يتمتع بالتقدير والإجلال، لما توفر له من علم ودين، بين شيوخ التصوف، والعلماء المعاصرين له، والذين جاءوا بعده.

وهذا هو أبو بكر الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠هـ يذكر الحكيم فى الباب الرابع من كتابه "التعرف لمذهب أهل التصوف": فيمن صنف فى المعاملات، ويعتبره أحد الأعلام المشهورين، المشهود لهم بالفضل، الذين جمعوا علوم المواريث والاكتساب. وسمعوا الحديث؛ وجمعوا الفقه، والكلام، واللغة، وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم"[١].

ويذكره السلمى المتوفى سنة ٤١٢هـ فى "طبقات الصوفية "فيقول: "هو من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة[٢].

وأبو نعيم الأصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ يذكره فى "حلية الأولياء" بقوله: "أنه مستقيم الطريقة يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين، تابع للآثار، وله التصانيف المشهورة"[٣].

---

(١) الكلاباذى "التعرف لمذهب أهل التصوف "٢٢ ص٧ .. ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) السلمى طبقات الصوفية ص١٥ ط كتاب الشعب.

(٣) أبو نعيم [حلية الأولياء] ج١ ص٢٣٣.

وقال عنه القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ في الرسالة القشيرية" بأنه من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم"[١] .

والهجويرى المتوفى سنة ٤٧٠هـ تقريبا في "كشف المحجوب" يقول عنه "ومنهم : الشيخ ذو الخطر، والفانى عن أوصاف البشر: أبو عبد الله محمد بن على الترمذى، رضى الله عنه. كان كاملاً وإماماً فى فنون العلم، ومن الشيوخ المحتشمين، وله تصانيف كثيرة طيبة، وكرامات مشهورة، مثل كتاب "ختم الولاية" وكتاب "النهج" وكتاب "نوادر الأصول". وقد عمل كتباً أخرى كثيرة. ومحمد در، يتيم، إذ لا قرين له فى العالم كله، وله كتب فى علوم الظاهر، وإسناد عال فى الأحاديث"[٢] .

والإمام الشعرانى يذكره فى "الطبقات الكبرى" فيقول عنه: "له التصانيف المشهورة"[٣] .

وقال عنه السبكى فى طبقات الشافعية: "المحدث، الزاهد، أبو عبد الله الترمذى الصوفى، صاحب التصانيف"[٤] .

وذكره ابن حجر فى "لسان الميزان" بقوله "أنه كان إماماً من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار فى أصول الدين ومعانى الحديث، وقد لقى الأئمة الكبار"[٥] .

والذهبى فى "تذكرة الحفاظ" يقول عنه: "الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف"[٦].

---

(١) القشيرى الرسالة القشيرية ص٢٢ ط دار الكتاب العربى.

(٢) الهجويرى كشف المحجوب ج١ ص٣٥٣ ط المجلس الأعلى.

(٣) الشعرانى الطبقات الكبرى ج١ ص٧٨ ط صبيح.

(٤) السبكى طبقات الشافعية ج٢ ص٢٤٥.

(٥) الأئمة الكبار الذين يمكن الرجوع إليهم فى امهات الكتب.

(٦) الذهبى تذكرة الحفاظ ج١ ص٦٤٥.

والشيخ زكريا الأنصارى يقول عن الحكيم فى "نتائج الأفكار القدسية" شرح الرسالة القشيرية: "إنه الصوفى صاحب التصانيف المشهورة، اشتهر بملازمة العبادة، بين العباد، وتفرد من بين الصوفية بكثرة الرواية، وعلو الإسناد، ناسك سلك طريق القوم، وصل التجهد وهجر النوم، ورحل فى طلب الحديث والعلم، وتلفح بمروط التقوى والحلم، لقى الأكابر، وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدراً معظماً ، وصوفياً محدثاً ضخماً كثير الكيس واللطافة، غزير المعارف التى تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقود جيد زماله، وتأرجت الأرض بعرف عرفانه، سمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره، وهو من أقران البخارى[١] .

وابن الجوزى فى "صفة الصفوة" يقول عنه: "أنه من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة[٢] . وذكره بكل تقدير وإجلال كثير من المؤرخين ومشايخ الإسلام كالجامى المتوفى سنة ٨٩٨هـ[٣] . والمناوى المتوفى سنة ١٠٣١هـ[٤] ، ودار شكواه المتوفى سنة ١٠٥٦هـ[٥]. وطاش كبرى زاده[٦]؛ وخير الدين الزركانى[٧]؛ وابن تيمية[٨].

---

(١) الشيخ زكريا الأنصارى نتائج الأفكار القدسية ج١ ص١٦٤ ط بولاق سنة ١٢٩٠هـ.

(٢) ابن الجوزى صفة الصفوة ج٤ ص١٤١ ط حيدر أباد ١٣٥٥هـ.

(٣) عبد الرحمن الجامى نفحات الأنس ص١٣١ ط كلكتا ١٨٥٨م.

(٤) المناوى الكواكب الدرية ورقة ٢١٢ مخطوط رقم ٢٤٩ جامعة برنستون.

(٥) دار شكواه سفينة الأولياء، مخطوط ف ٨٥.

(٦) طاش كبرى زيادة مفتوح السعادة ج٢ ص١٧١ ط حيدر أباد الهند.

(٧) الزركانى الأعلام ج٢ ص١٥٦ الطبعة الثانية.

(٨) ابن تيمية حقيقة ملهب الاتحاديين ص٥٩ — ٦٠ ط رشيد رضا.

ويذكره العطار فى "تذكرة الأولياء "بقوله "السليم السنة، عظيم الملة، مجتهد الأولياء، منفرد الأصفياء، حرم القدس، شيخ الوقت، محمد بن على الترمذى – رحمة الله عليه – المحتشم بين الشيوخ، المحترم بين أهل الولاية، الداعى بكل اللغات الشارح لمعانى الأحاديث، ورواية الأخبار، والأعجوبة فى بيان المعارف والحقائق الكاملة القبول، العظيم الشفقة، العجيب الحلم، العالى الخلق، صاحب الرياضيات، والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشريعة والطريقة"[1].

وصاحب "كنوز الأولياء" يقول عنه: "من كبار المشايخ، وهو مجتهد فى الشريعة والطريقة، وله مصنفات فيهما، ولم يقلد أحداً، كان أعجوبة الدهر فى الكمالات العلمية، والعملية. وكان لايتكلم إلا بالحكمة ولذا يقال له "حكيم الأولياء"[2] .

فالحكيم الترمذى – كما رأيت – متعه الله بتبحر، ورسوخ فى مختلف العلوم، وقدم ثابت في العقيدة، فكان له من الدروس والتأليف ما بز به سعة وشمولاً، وعمقاً وتتبعاً، واستقصاء، وتنوعاً، وكثرة..

كان رضى الله عنه صاحب فكرة واضحة، ومنهج محدد فى رسم الصورة المثلى، للرقى الإنساني. الذى يستطيع المؤمن الحق أن يصله، حتى يصير مثلاً حياً للخير يمشى بين الناس.

يضاف إلى ذلك قدرته على التعمق فى المعانى، والخوض فى الدقائق

---

(١) فريد الدين العطار تذكرة الأولياء حاجى ٩١.

(٢) اليافعى كنوز الأولياء ورموز الأصفياء ورقة ٨٤ مخطوط المكتبة الظاهرية.

والأسرار، واستنباطاته العميقة، وإشاراته البديعة، ونغماته الطيبة، وأفكاره اللطيفة.

وهذه المثل واللطائف التي تناولها الحكيم بالشرح والتحليل، والذكر، وبحثها في كتبه ورسائله، جعلت الأبصار تتجه إليه، وتعكف على آرائه، تناقشها وتقبلها، أو تردها، وتعتنقها أو ترفضها، بدأ ذلك في حياته وبعد مماته[1].

أما في حياة الحكيم فإننا نرى أن الدراسات تقول لنا: أنه كان للحاقدين والحاسدين عليه منهج يقوم على إثارة العامة، وحكام البلاد، ليحققوا من وراء ذلك مآرب لهم، ويصلوا إلى أغراض لهم.

ونتيجة لهذا المنهج الخطير. تعرض الحكيم الترمذي إلى ألوان من المضايقات، والاتهامات، والنفي، والحيلولة بينه وبين الناس. وكان ذلك حينما بدأ الحكيم الترمذي، يروض نفسه، ويتخذ مجلساً، يتلقى فيه الأخوان السالكون العلم ومذكراته، والدعاء، والتفرغ.

ويبدو — كما يذكر العلماء: إن هذه المجالس، كانت تحفل بكثير من إشارات الصوفية، ولمحات العارفين، في أمور لم يألف الناس الخوض فيها، وتناولها على هذا النحو الذي يطلق فيه العنان لإشراق النفس، ونور القلب فيلهم أهله فهماً في أية من كتاب الله أو حديثاً من أحاديث رسوله الكريم، أو تعليلاً لأمر من الأمور، التي كانت مجالاً يخوض فيه الناس في ذلك الوقت.

وكانت مثار أخذ وردن بين العلماء والباحثين، وتختلف نظرتهم إليها، وحكمهم عليها، تبعاً لاختلاف المنزع والمنهج، والقدرة على الاستنتاج، وحكمهم عليها، تبعاً لارتباط الباحث بمنهج معين، والسير على منوال خاص، لايحاد عنه في

---

(١) الدكتور الجيوشي الحكيم الترمذي دراسة لآثاره وأفكاره ص٢٢٨.

تفسير الأمور وتعليلها.

وقد أدى هذا الاختلاف في المنهج والقدرة على الاستنتاج. إلى أن يتناول بعضهم الحكيم بالنقد والتجريح، وأحياناً بالإيذاء والاتهام بالهوى والبدعة، مما سبب كثيراً من الحزن، والألم، للشيخ الكبير، ووصل الأمر بهؤلاء الحاقدين والحاسدين أنهم لم يتورعوا عن الوشاية به، والافتراء عليه.

لكن الحكيم اعتبر هذه الفترة بمثابة تمحيص، وامتحان، ومحاولة للتغلب على نوازع النفس، وامتلاك زمامها، وإخضاع رغباتها، حتى لاتجمح به أو تستهويها، مظاهر العبادة والنسك، فتفسد عليه طريقه، وتصرفه، عن غايته التي كرس جهوده كلها للوصول إليها.

وحينما وضحت الأمور، وانكشف التآمر، وعرف الزيف الذى لفقه الحاقدون، وتبينت الوشايات التي لاحقت الحكيم، وقف القوم يحسون بحلاوة الحديث، وطعم الكلمات، فأقبلوا على الحكيم يطلبون الحكمة لتستنير القلوب.

وإذا كان لبعض الأئمة أن يعلو شأنهم، ويتألق سناهم، وتبقى على الأيام ذكراهم بما صنفوا من الكتب، أو خلفوا من الآثار. فإن الحكيم الترمذى علم من الأعلام، تشبع من الثقافة الإسلامية، وكتاب الله وسنة الرسول، عملاً وسلوكاً، وتجربة وطريقاً، فأهله ذلك للتصنيف، واجتمع له من المؤلفات مالم يجتمع لغيره من الأفذاذ، وترك للتراث الإسلامي، مايزيد على ستين كتاباً وأكثر من مائتي رسالة.

ولاشك أن مؤلفات الحكيم كانت ذات تأثير فيمن كانوا حوله من شيوخ، أو مريديه يحملون ذكره وتوجيهاته.

ويذكر المستشرق نقولا هير "أن تأثير الترمذى على الصوفية بعده عن طريق

مؤلفاته أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه. فإن كثرة استنساخ كتبه، حتى إلى عهد قريب تقوم شاهداً على ما لقيته عند الناس من استحسان ورواج"[١].

ويؤكد محقق كتاب "ختم الأولياء" الدكتور عثمان يحيى: أن تأثير حكيم ترمذ في البيئة العلمية الإسلامية كان بوساطة كتبه ورسائله العديدة التى حفظ الزمن القسم الأكبر منها لحسن الحظ، وأن بقاء أكثر مؤلفات الشيخ الترمذى فى دور المكاتب، إن في الشرق، أو فى الغرب لدليل بارز، على عناية العلماء البالغة بها، وشيوعها فى الأوساط الإسلامية المختلفة[٢].

ويرى المستشرق ماسنيون : أن الحكيم الترمذى علامة واسع الإطلاع. يكاد يكون صاحب مذهب غزير الإنتاج، وكتبه لها دورها[٣].

فمؤلفات الحكيم الترمذى كانت تحظى بتقدير عميق فى المدارس الإسلامية وقد أثرت كتبه فى كثير من علماء التفسير والتصوف ورجال الطريق.

والله ولى التوفيق.

أ. د. أحمد عبد الرحيم السايح   أ. د. أحمد عبده عوض

---

(١) الدكتور نقولا هير مقدمة كتاب "الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب " ص١٢.
وقد تم تحقيق هذا الكتاب بعناية الدكتور أحمد السايح.

(٢) الدكتور عثمان يحى مقدمة "ختم الأولياء" ص٣٨.

(٣) المستشرق ماسنيون "دراسات فى التصوف الإسلامية" ص٢٨٣ ، ٢٩٤.

مقدمة الكتاب

الحمد لله ولي الحمد وأهله، أما بعد ..

فأما ما سألت عنه من صفة القلب وأسمائه، وصفة أحواله، وصفة النفس، وصفة إبليس وجنوده، وبيان سلطانه عليها، وعللها، وشأنها وأحوالها، وبدلها، وصفة المعرفة، وما في حشوها، وصفة النور ولباسه، وصفة أخلاق آدم المائة خلق، وصفة جنود المعرفة، وصفة العقل ومعدنه ومجلس قضائه وأعوانه، وصفة مدائن المعرفة وقراها وآثارها وعمّارها. وبيان صفة المعسكر، وبيوت الدواوين وخزائن الطاعات ومعادن الحكمة، وسجون النفس، وخلق آدم وبيان اسمه. وترجمة لا إله إلا ا لله.

وبيان تفسير قوله: ﴿ألست بربكم﴾.

وتفسير اسم إبراهيم خليل الرحمن، وتفسير إسم إبليس، وإسم فرعون، وتفسير قوله: ﴿ا لله نور السموات والأرض﴾، وتفسير شجرة الزيتون، وتفسير شجرة طوبى.

فهذه ثلاثة وثلاثون مسألة؛ لها غور بعيد. لايمكن استقصاؤها لبعد قعرها، وسنذكر منه ما يفهمه ذو اللب.

فإن الفؤاد أول مدينة من مدائن النور، وللنور سبع مدائن، أولها الفؤاد، ثم الضمير، ثم الغلاف، ثم القلب، ثم الشغاف، ثم الحبة، ثم اللباب.

فالضمير قلب الفؤاد، والغلاف قلب الضمير، والقلب قلب الغلاف،

والشغاف[1] قلب القلب، والحبة قلب الشغاف، واللب قلب الحبة وهو معدن النور.

فهذه سبع مدائن بعضها في بعض، ولكل واحدة منها باب، ولكل باب مفتاح، وعلى كل باب ستر، وبين كل واحد حائط، ومن وراء كل حائط خندق.

صفة الأبواب

صفة الأبواب: فأما باب الفؤاد فمن نور الرحمن، وأما باب الضمير فمن نور الرأفة، وأما باب الغلاف فمن نور الجود، وأما باب القلب فمن نور المجد، وأما باب الشغاف فمن نور العطاء، وأما باب الحبة فمن نور الألوهية، وأما باب اللباب فمن نور العطف ونور العطف، من نور القربة، ونور القربة من نور الشفقة، ونور الشفقة من نور الإرادة، ونور الإرادة من نور نور إرادة الإرادة، وهو من نور المحبة، ونور المحبة من نور المنّة. وهم علم دقيق لايمكن فحصه.

صفة الستور:

فأما ستر باب الفؤاد فالجمال، وأما ستر باب الضمير فالحلال، وأما ستر باب الغلاف فالسلطان، وأما ستر باب القلب فالهيبة، وأما ستر باب الشغاف فالقدرة، وأما ستر باب الحبّة[2] فالعظمة.

وأما ستر باب اللباس فالحياء، والحياء من ستر الملك.

---

(١) يقال في اللغة: شَغَفَهُ الحب – شَغَفَاً: أصابَ قلبه. وشُغِفَ به شَغَفَاً: احبه واولع به، فهو مشغوف. والشَّغَاف: سُويداء القلب وحبّته.

(٢) الحَبَّةُ: واحة الحَبّ. ومن الأوزان: قدر شَعِيرتَن وُسْطَيين. وحَبَّةُ القلب: مُهْجَتُه وسُوَيْداؤُهُ.

صفة المفاتيح: وأما مفتاح باب الفؤاد فالإقرار، وأما مفتاح باب الضمير فالتوحيد، وأما مفتاح باب الغلاف فالإيمان، وأما مفتاح باب القلب فالإسلام، وأما مفتاح باب الشغاف فالإخلاص، وأما مفتاح باب الحبة فالصدق، واما مفتاح باب اللباب فالمعرفة.

صفة الصدر: فأما الصدر فإنه مصدر الأمور، ومعدن المشورة والقضاء ومجلس الملك وهو العقل، وهو ربض[1] المدنية وما والاها.

وللمدنية فيه أربعة أبواب شارعة إليه، وهو ميدان عظيم، ومجلس بهى، فيه قناديل الرحمة، ومصابيح النور، تزهر فيه من النور الذى فى القلب، وشموع لواحه تبرق بضوءها ونورها.

من ذلك ماروى محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وروى الربيع عن أبى بن كعب فى قول الله عزل وجل "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة"[2].

قال: المصباح النور، والزجاجة القلب، والمشكاة الصدر.

وروى عن أسباط السدى فى قول الله عز وجل: "الله نور السموات

---

(١) الرَّبَض: ماوى الغنم وغيرها من الدواب. وكل ما تأوى إليه، وتستريح لديه من أم وزوج، وبنت، وقرابة، وبيت وغيره. وما حول المدينة هو ربض.

(٢) سورة النور آية: ٣٥.

لجد توضيحاً لما قاله الحكيم الترمذى فى التفاسير حيث أورد الإمام ابن كثير كلاماً مشابهاً عن أبى بن كعب ﷺ فى تفسير هذه الآية الكريمة فقال "قال أبى بن كعب: المصباح النور، وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره" (٢/٢٩).

والأرض" قال المشكاة الصدر، والزجاجة القلب، والمصباح هو النور.

يقول: فكلما دخل هذا المصباح في الزجاجة فأضاء فكذلك أضاء الصدر ثم ترك الضوء من الكوة وهي المشكاة فأضاء البيت.

وكذلك نزل النور من الصدر، فأضاء الجوف كله وهو النفس وقال تعالى "أفمن شرح الله صدره للإسلام"..[١] وفيه معادن ودرجات ومحاصل من قوله: ﴿وحصّل ما في الصدور﴾، وفيه ساحة لسماطي[٢] الملك، ومعسكر وموضع قضائه، وتزيين الأعمال ومحشد الجيوش، ومحث الجنود، وستور الرحمة وله سبع حيطان، وسبع خنادق.

صفة الحيطان والخنادق:

فأما حيطانه فله سبعة حيطان حوله، ما بين كل حائط منها خندق. فأما الحائط الأول، وهو الذي بينه وبين النفس فهو من الاستعاذة، والثاني من الذكر، والثالث من الاستنصار[٣]، والرابع من الاستعانة، والخامس من المجاهدة، والسادس من التوكل، والسابع من التسليم.

---

(١) سورة الزمر آية: ٢٢

ونص الآية الكريمة "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين".

(٢) السِّماطُ: ما يمد ليُوضَعَ عليه الطعام في المآدب ونحوها. والجمع سُمُط، وأَسْمِطَةٌ.

(٣) الاستنصار: طلب النصر، وهو من النصر ثم أضيفت السين للطلب، وقد وردت مرتين في القرآن العظيم، وذلك في قوله تعالى:

﴿إن الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ القصص ١٨.

﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ الأنفال ٧٢.

وأما خنادقه فالظفر، والذكر، والعون، والنصرة، والهداية، والخشية، والنجاة.

فأما الظفر فهو خندق الاستعاذة من الله عز وجل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون"[١] فوعد على الاستعاذة سلب سُلطان العدو. وسمى المستعيذ مؤمناً، وحيث قال: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾. وسمى المؤمن متوكلاً حيث قال: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ثم وصف سلطانه فقال: ﴿إنما سلطانه على الذيون يتولونه﴾[٢].

وأما الذكر فإنه خندق الذكر من قوله تعالى ﴿فاذكروني أذكركم﴾[٣]، فوعد على ذكرك له. ذكره لك ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾[٤] جل ذكره وعظمته من أن يناله أحدكما هو له أهل.

وقيل الحكمة ذكر العبد بين ذكر الرب، يذكر الرب بالرحمة. فيذكره الرب من ذكره له بالثناء والحمد والعبودة، فيذكره الرب بالتوبة والشكر والمغفرة والقبول. فذكر الله حرز وثيق وحصن حصين.

وأما العون وهو التوفيق فهو خندق الاستعانة، إذا أمر بذلك في أمر

---

(١) سورة النحل آية ٩٩.

(٢) سورة النحل آية ١٠٠

ونص الآية الكريمة ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٢

ونص الآية الكريمة ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٥.

ونص الآية الكريمة ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾.

الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم.

وشرط لعبده على نفسه أن تصفه له وتصفه لعبده وأن لعبده ما سأل، فقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[1] ؛ ثم قال: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾[2] ؛ فشهد لمن استعان به بالخشوع واليقين بلقائه، والرجوع إليه عند البعث.. فقال: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين للذين يظنون أنهم مُلا قواربهم﴾[3].

فالهداية لمن استعان به؛ إذ قال: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾[4] .

وأما النصر فهو خندق الاستنصار من قوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾[5] .

أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، فوجد النصر على حد الاستنصار؛ حيث قال فقد جاءكم النصر، ثم قال: ﴿إن تنصروا ا لله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[6].

وأما الهداية فإنه خندق الجهاد من قوله تعالى ﴿وجاهدوا في ا لله حق جهاده﴾[7]

---

(١) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٢) سورة البقرة آية ٤٥.

ونص الآية الكريمة ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾.

(٣) سورة البقرة: آية ٤٦.

ونص الآية الكريمة ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾.

(٤) سورة البقرة: آية ١٥٧.

ونص الآية الكريمة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

(٥) سورة الأنفال: آية ١٩.

(٦) سورة محمد: آية ٧.

ونص الآية الكريمة ﴿يأيها الذين آمنوا إن تنصروا ا لله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

(٧) سورة الحج: آية ٧٨.

فأمن بالجهاد حق الجهاد، ثم بين لهم منزلتهم عنده وخصوصيتهم؛ فقال مبرزاً لمنته عليهم، طالباً لشكره منهم "هو اجتباكم" فأنتم أهل جبايتي[1] جبيتكم من بين خلقي.

فأنتم عبادي المجتبون، ثم أبرزهم وألطفهم، وأظهر لهم العذر، وبين لهم الحجج فإنه لم يأمرهم ولم يُحملهم إلا ما يطيقون فقال: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[2].

ثم نسبت ملتهم إلى ملة أبيكم إبراهيم، وشهد لهم بالنبوة لإبراهيم ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي كأنه أراهم من نفسه أني بكرامة إلا بالحق بهم الأولاد، وأحفظ لهم، وأتعاهدهم.

من ذلك قوله: ﴿ والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾[3].

ومن قوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾[4] أي إنما حفظت كنزهم تحت ذلك الجدار، وعينت خليلي الخضر بإقامته لسبب صلاح أبيهم، ثم قال: ﴿رحمة من ربك فإن رحمي قريب من المحسنين﴾[5] ثم قال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[6].

---

(١) اجتباه: اختاره واصطفاه لنفسه، وفي القرآن الكريم ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ يوسف: ٦.
ومعنى أهل جبايتي: أي أهل اصطفائي واختياري.

(٢) سورة الحج: الآية ذاتها ٧٨.

(٣) سورة الطور: آية ٢٠.
وقراءة حفص لهذه الآية الكريمة ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾.

(٤) سورة الكهف: آية ٨٢.
جزء من الآية الكريمة ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً﴾.

(٥) هاتان جزء من آيتين كريمتين، فقوله ﴿رحمة من ربك بعض من آية الكهف السابقة (٨٢). وأما ﴿فإن رحمي قريب من المحسنين﴾ فربما أراد بذلك قوله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ الأعراف: آية ٥٦.

(٦) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

فوعد على الجهاد، والهداية لسبيله، لا لسبيل واحد، ثم شهد له بالإحسان، ونصره بمعيته.

رجعنا إلى ما كنا فيه فقال: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾[1] فشهد لهم بالإسلام ونسبت تلك التسمية إلى خليله إبراهيم، أى أنه أبوكم ومن أحق بتسمية الأولاد من الآباء؛ يودد خليله ومنّته إليهم.

ثم قال: ﴿وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾[2] حيث تجحد الأمم تبليغ رسل الله إليهم الحجج، وكتب الله ثم ذكر فى آخره "واعتصموا بحبل الله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[3] .

فمدح نفسه بالمولى والنصير؛ حيث يتولى أموركم الكافر والمسلم وينصركم إذا استنصرتموه، ويرضى باليسير، ويشكر الكثير، ويكرم المطيع، ويرحم العاصى، ويقبل التوبة والحسنة يضاعفها، ويحط السيئة ويبدلها، ويرفع الدرجات ويقيل العثرة.

وأما الخشية فإنه خندق التوكل من قوله ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[4]؛ ومن قوله ﴿وعليه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[5] فشهد على

---

(١) سورة الحج : آية ٧٨.

(٢) سورة الحج : آية ٧٨.

(٣) ما ذكره رحمه الله ليس هو النص القرآنى الصحيح، وهو ما أراده من قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فأصبحتم بنعمته إخواناً..﴾ آل عمران: آية ١٠٣.

(٤) بعض من آية كريمة فى سورة الطلاق: آية ٣.

(٥) النص القرآنى الصحيح نجده فى قوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ المائدة: آية ٢٣. وفى قوله تعالى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس: آية ٨٤.

المؤمنين بالتوكل.

وأما النجاة فهو خندق التسليم؛ حيث ذكر من شأن إبراهيم وابنه عليهما السلام ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾[١] ثم قال: ﴿وفديناه بذبح عظيم ونجيناه من الغم﴾[٢] ثم وعد من فعل فعله أن يعامله معاملته فقال ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾[٣] ثم شهد له بالإيمان وسماه عبده فقال ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾[٤] ثم قال: ﴿إنا كذلك نجزى المحسنين﴾[٥].

والإحسان ههنا الإخلاص أى اختلص نفسه من نفسه، ووفى لربه بما أمره، وتوكل عليه.

[صفة الأبواب]

باب صفة الأبواب التي على الصدور والبوابين:

فإن للصدر بابين شارعين إلى النفس؛ باب الأمر وباب النهي وبوابيهما المشيئة والقدرة، وعليهما ستران، الجبروت والملكوت، وعلى البوابين لباسان من نور الوحدانية والألوهية؛ حَشْوَهما الرأفة واللطف والعطف والرحمة، ونسجهما بنور السلطان والعظمة و الهيبة والكبرياء.

---

(١) سورة الصافات: الآيات الكريمات: ١٠٣ — ١٠٥.

(٢) أدخل الشيخ رحمه الله آيتين كريمتين في سورتين كريمتين في آية واحدة؛ فقوله﴿ وفديناه بذبح عظيم﴾ هو الآية الكريمة رقم ١٠٧ من سورة الصافات.

وقوله ﴿ونجيناه من الغم﴾ هو جزء من قوله تعالى عن ذى النون عليه السلام ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ الأنبياء ٨٨.

(٣) بعض من آية الأنبياء السابقة رقم ٨٨.

(٤) الصافات : آية ١١١.

(٥) الصافات: آية ٨٠.

باب صفة أساس الحيطان:

فإن أساس الحيطان على سبعة أشياء؛ على الشكر، والرضا، والصبر، والإخلاص، والنية، والقبول، والإقرار.

باب الهمة والتعاهد لها:

فأما استصلاح الحيطان ومرمتها، وقوامها. كي لا تقضى فتنهار، أو تصيبها آفة من أيقب[١] أو ثلمة[٢] أو نفق[٣] فثمانية أشياء وهي: التهليل، والتحميد، والتكبير، والاستسلام، والتمجيد، والتسبيح، والاستغفار. والصلاة على النبي ﷺ.

باب صفة النفس وما فيها:

أعلم إن النفس نفسان: نفس ظاهرة، ونفس باطنة. فأما الباطنة فهي المذمومة، وأما الظاهرة فهي متابعة لمن قادها، وغلب عليها، واستولى.

من ذلك قول الله عز وجل فيما يحكي عن شهادة يوسف بالسوء فقال: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾[٤].

وقوله ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾[٥] فإنما تجادل النفس

---

(١) لعل الأيقب من وقب — الثلاثي — والذي يراد به الغروب. كما في قوله تعالى: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ سورة الفلق: آية ٣. ويكون الأيقب هنا هو الإظلام أي إقبال الليل بظلامه كما قال ذلك المفسرون رحمهم الله تعالى.

(٢) (ثَلَم) الجدار وغيره ثَلْماً: أحدث فيه شقاً وثلِم الإناء: كسر حَرْفَه.
وثَلِم الشي ثَلَماً: صارت فيه ثُلْمَة. فهو ثَلِمٌ.

(٣) (نَفَقَ) الشي نَفْقاً: نَفِدَ. ونفقت الدابة نفوقاً: ماتت.

(٤) سورة يوسف: آية ٥٣.

(٥) سورة النحل: آية ١١١.

الظاهرة النفس الباطنة.

وقوله: ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى﴾[(١)].

وقوله: ﴿تعلم ما فى نفسى﴾[(٢)] .

فهذه صفة النفس الباطنة، وأما صفة النفس الظاهرة. فإنها تابعة لمن غلب عليها، فإن غلب عليها الملك، وهو النور، والعقل كانت تابعة لهما.

وإن غلب عليها النفس الباطنة وانقادت لها فمن قوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾[(٣)] لغلبة الملك عليها.

﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾[(٤)].

الصواب[(٥)] نفسه أى ذاته، أى نفس الشيطان. وذلك أن هذه الباطنة هى نفس الشيطان، ولها شأن نصفه فى موضعه إن شاء الله.

وقوله ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها﴾[(٦)] أى أصلح النفس الباطنة لتصلح النفس الظاهرة بصلاحها، ومنه قوله عز وجل:

---

(١) سورة طه: آية ٩٦.

(٢) سورة المائدة: آية ١١٦.

(٣) سورة آل عمران: آية ٣٠.

(٤) سورة آل عمران: آية ٣٠.

(٥) كلمة (الصواب) أراد بها الشيخ رحمه الله تفسير الآية، ويراد بها كلمة (المراد) أو هكذا أراد والله أعلم. وما ذهب إليه رحمه الله من تفسير النفس هنا بنفس الشيطان هو من قبيل التأويل. فقوله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ على نحو ما ذكر المفسرون أى يخوفكم عقابه، والله تعالى أعلى وأعلم.

(٦) سورة الشمس: الآيتان ٧-٩.

﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾[1].

إنما قال المطمئنة لأن النفس الباطنة إذا قُمعت، وسُجنت، ووقى شحها؛ ضعفت، وخمدت نيرانها، وسكنت الظاهرة، واطمأنت من اقتارها، ووقعت فى راحة.

ألا ترى إلى قول الله عز وجل ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2] فهاتان النفسان ظاهرة، وباطنة كما وصفناه من شأنهما وهما مرتبتان عظيمتان، وبينهما تفاوت وتفاضل.

وهما خارجتان من تلك الحيطان كلها، والخنادق التى وصفنا وفيه أشياء ما لا يقدر وصفه مخافة طول الكتاب.

باب صفة النفس الباطنة:

فأما النفس الباطنة فإن جوهرها من أخس التراب، وأدناها وأخشنها، وذلك أنها من موضع موطئ إبليس ومركضه[3] ومتخطاه وممشاه؛ إذ كان فيها ملكاً ورئيساً بقى الأرض[4] فى

---

(١) سورة الفجر الآيتان ٢٧ - ٢٩.

والنفس المطمئنة هى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق؛ فيقال لها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك﴾ أى إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ﴿راضية﴾ أى فى نفسها ﴿مرضية﴾ أى قد رضيت عن الله، ورضى عنها، وأرضاها (فادخلى فى عبادى﴾ أى فى جملتهم ﴿وادخلى جنتى﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفى يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) الركض: من رَكَضَ رَكْضا، وَرَكْضَةً: ضرب برجله، وفى التنزيل الحكيم ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ سورة ص آية ٤٢.

(٤) بقى الأرض لعل المراد به البقاء والثبوت، وهذا ما ينسجم مع السياق، ومع المعنى اللغوى للكلمة.

زى الملائكة مع ذلك الملأ. فاصابها شؤم كفره لتوطئه عليها أيامه فى دهره، مع شركه الذى كان فيه، والكفر والتكبر، إذ وصفه الله بالكفر، وهو لباس التوحيد فشهد عليه بالكفر، وأبطل ما أظهر من دينه بما كان فى باطنه وضميره من الحيلة عليه يوم خلقه فقال: ﴿وكان من الكافرين﴾[1].

فلما جبل آدم من تراب وجه جميع الأرض أسودها وأحمرها، خبيثها وطيبها، سهلها وجبلها؛ امتزج التراب والموطئ والخُطى بالأخرى، فلما جبلها صارت خلقة.

آدم على موطأه وخطاه، وصار الموطئ أخبث وأردى، وأظهر شؤماً من الخطوه، وسنصفه فى موضعه - إن شاء الله- فصارت تلك التربة جوهر خلقة النفس نفس آدم؛ إذ جبله عليها ومنها، وصارت أس النفس وقاعدتها.

فلما فرغ منه وضعه تحت العرش فمر عليه إبليس، وهو فى زى الملائكة.

فقال لهم: أرأيتم إن أمركم الله له بأمراً فتطيعونه.

فقالوا: نعم؛ قال: فاما أنا فلا أطيعه.

وذلك أنه نظر فى أصل خلقته؛ فعرف أنه خلق من التراب فتهاون به.

وقال: إن أمرنى أن أطيعه فلا أطيعه، وإن هو لم يطعنى استفرغت الجهود فى استطاعته، ونصبته الحرب بينى وبينه.

فقالت له الملائكة: ولِمَ تفعل ذلك؟

قال: لأنه خلق من تراب موضع قدمى، وموطنى، وخطوى وممشاى، فلى فيه وجهان: أما أحدهما: فهل يسجد الأب لابنه، والسيد لعبده، فإنه منى بمنزلة الإبن

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

ونص الآية الكريمة ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

أو العبد إذ خلق من مرتكض رجلي، وممشاي وما مسحت به قدمي منذ ألفي سنة.

وأما الوجه الآخر فإن موطىء الواطئ وخطوته كبعض جسده، فلا بعد لبعض الجسد من الطاعة لبعضه، ولابد لبعض الجسد الأدنى والأقل من الطاعة لبعض الجسد الأعلى والأكبر. فقاس بهذه الأشياء أمر الله وخلقه، فأول من قاس ابليس أبعده الله[1].

[احتجاج ابليس]

احتجاج إبليس فيما احتج به:

قيل له ما الدليل على ما احتج إبليس، وما بيانه، وبيان حججه ما هو موجود فيمن بعده؟

قال: أرى احتجاجه في ذلك من قول الله تعالى ﴿فقبضت قبضة من أثر

---

(١) قول إبليس لعنه الله (أنا خير منه) من العذر الذي هو أكبر من الذنب؛ كأنه امتنع من الطاعة؛ لأنه لايؤمر الفاضل بالسجود للمفضول.

يعني لعنه الله يقول وأنا خير منه؛ فكيف تأمرني بالسجود له؟

ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين. فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى ﴿فقعوا له ساجدين﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود. فلهذا أبلس من رحمة الله، أي أويس من الرحمة، فاخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه: أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا كان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

الرسول﴾[1] كان تلك القبضة من موطئ فرس جبرائيل، وكان علــى فـرس الحيـاة، وإنما أخذ من موضع حافره. لما كان فيه من الحياة. فأثر ما طـرح مـن تلـك القبضـة فأحيا كل شيء، وهو فى قصة السامرى يقول: فلو لم يكن ذلك التراب من الفرس لما كان يحيا منه كل ميت.

ومن قوله ﴿إنا نحن نحيى ونميت ونكتبه ما قدموا وآثارهم﴾[2] يقـول ﴿وإن الله يكتب المؤمن وعلى الكافر ما قدم خيراً وشراً، وآثارهم. والآثار ما تحـت القـدم فتلحق الآثار من الأفعال بالآثار من الأجسام، كما أن الأفعال من الأجسام.

ومن قوله: ﴿ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينـالون مـن عـدو نيـلاً إلا كُتب لهم به عمل صالح﴾[3].

يقول الله تلحق أى تجعل الموطئ من العمـل كموضـع الوطئ مـن المـوطء، والموطئ من الجسد كبعضه. وكانه يقول لو لم يمكن الموطأ من الواطئ كبعض الجسد لما جعل النيل والموطأ فى الأجر سواء.

فكما أن الوطئ من الواطئ. كذلك موضع الواطئ من الموطئ، فهـذه صفـة النفس الباطنة والظاهرة.

رجعنا إلى ما كنا فيه من شأن النفس. فالموطئ إنما هو موضع القدم وخطوته.

---

(١) سورة طه: آية ٩٦.

(٢) سورة يس: آية ١٢.

(٣) سورة التوبة: آية ١٢٠.

ونص الآية الكريمة ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسـول الله ولا يرغبون بانفسهم عن نفسـه. ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصـة فـى سـبيل الله ولا يطئون موطئاً لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وكان إبليس يوم وطئ تلك التربة كافراً في علم الله مطيعاً في الظاهر كما قال تعالى: ﴿وكان من الكافرين﴾[١].

ومن قوله: ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾[٢].

وكما وجدنا لمقام إبراهيم من الكرامة والمنزلة ما جعل الله قبلة لمن آمن، وأمرهم بأن يتخذوه مصلى، وليس هو إلا أثر قدم في حجر؛ فوقع لقدمه من الحرمة ما إن اتخذ موضعه وأثره قبلة الخلق (لاتقبل التوبة في الأفاق) الآية[٣].

ولم تقع هذه الحرمة إلا أنه عده من القدم، وألحقه به كأنه هو القدم نفسه، والقدم قد زال عنه، وأبلته أيدي اللامسين، واختلاف الزائرين فليس إلا رسم قدم قد ذهبت عنه آثار الأصابع.[٤]

فكذلك لمقامي وقدمي وموطئ وأثري وخطوي من المنزلة أن أعده من نفسي وبعضي وعضوي.

ومنه في حديث آدم حين أهبط إلى الأرض في أرض الهند[٥] فما يلي مطلع

---

[١] سورة البقرة: آية ٣٤.

[٢] سورة البقرة: آية ١٢٥.

[٣] لا توجد آية كريمة بهذا المعنى، ولا يبدو واضحاً مايريده الشيخ رحمه الله من هذا الشاهد. فكلمة الأفاق لغةً يراد بها، الضارب في أفاق الأرض. ويقصد بها كذلك: من لاينتسب إلى وطن.

[٤] هذا الكلام وجدنا له أصلاً صحيحاً في التفاسير، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

[٥] لا يوجد نص صريح من الكتاب أو السنة يستدل منه على الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام، وقد اختلفت الروايات في ذلك. ولعل مما يدعم رأي الشيخ رحمه الله ما ذكره ابن عباس ﷺ : أهبط الله آدم بالهند، ثم مسح على ظهره فاخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة. وعنه أيضاً: أنه أهبط برهيا – أرض بالهند –.

الشمس فجال جميع الدنيا، فما كان تحت قدمه نالته رحمته وبركته، فصار مدينة، وما كان بين قدميه صارت قرى، وما لم تصبه قدمه صارت مفاوز.

ومن ذلك أهل المدن على أهل القرى، فكما نالت تلك التوبة بركة قدم. كذلك نالها شؤمه وكفره وكبره، وكما أضيف ذلك إلى آدم كذلك أضاف عدو الله ذلك الشر إلى نفسه.

وذلك أنه أدعى أن الشوّم والكفر والعتق كانت فيه. فلما نالت التربة امتزجت بها فصارت كالشي الواحد، ومنه سمي الخضر خضراً إلا أنه أين ما مشى من الأرض نالته بركته ولطفه وطيبه فاخضر ما حول قدميه.

وأصل الخضرة من نور الجلالة. وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾[1] أى كونوا على الصلح الذى صولحتم عليه. وهو الحلال والحرام خُير أبوكم بين الحلال والحرام، وخيّر العدو بين الحلال والحرام؛ فاختار الحلال آدم، واختار العدو الحرام والفحش؛ فاصطلحا على ذلك، واصلطحت ورثة ابليس على ذلك.

فاصطلحوا أنتم يا بنى آدم على صلح أبيكم، وما قد اختار لنفسه، ولكم ن الطيبات، وما قد أباح لكم من الحلال، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، أى لا تبعوا نفوسكم الباطنة؛ فإنها خلقت من خطوات الشيطان، وإن تهمتها تهمة شيطان، وما اختاره من الحرام.

---

[1]) سورة البقرة: آية ٢٠٨.

فهذا السلم حصن لكم وكهف، فادخلوا في حصنكم وكهفكم إذا حزبكم أمر من العدو: ﴿فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾[١] فالسلم حصن، والتوكل حرز وثيق، وخندق قعر، وبحر عميق.

وأما وصف من شأنه:

وكان من الكافرين فلما وطئها نالها من شؤمه، وشؤم كفره[٢] وظلمه، وتمرده، واستكباره الذى ظهر منه يوم السجود؛ فصارت بهذا المعنى كعضو منه، فلما لعن صارت تلك التربة ملعونة؛ حيث نالتها تلك السخطة. فلما رمي إليه بالأباطيل صارت تهمة إبليس فيها ومراده من الدنيا، ومطلبه، ومحبوبه، ومسروره ومفروحة، ونالت تلك التوبة من آدم ما نال صاحبها. إذ كانت قد صارت العضو منه؛ فبدر إبليس عدو الله، وقامر؛ فوجدها في آدم قائمة بعينه. فاستغنم منه بها؛ إذ وجد آدم مجبولاً على عضو من أعضاء إبليس.

فقال: جسدى لا يعصيني. كيف ما كان؛ فتقوى بها عدو الله، وفرح بما نال من الفرصة.

---

(١) نص الآية الكريمة فى سورة النحل ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ ٩٨-١٠٠.

(٢) شَأَمَهم شَأماً: جر عليهم الشُؤْمَ. الشؤم: الشر.

[بين آدم وإبليس]

رجعنا إلى ما كنا فيه:

فلما أكرم الله تعالى آدم - عليه السلام - وأبرز فضله على جميع الخلق، وأمره بالسجود له. تكبر، وأنف أن يسجد لشيءٍ دُفِعَ من تحت قدميه أدنى شيء وأخسه، وقال: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"(1).

ذكر جوهره، والنار من النور، والنور من العزة. فأنا أحق أن يسجد لي، ثم ذكر جوهر آدم وخلقته من طين والطين من التراب، والتراب من الأرض. والأرض ممشايَ وموطني فاسجد لنفسي، ولتحت قدمي، وأسجد هواي. فوصفه الله ذلك في التنزيل، وحذر خلقه فقال: ﴿لاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾(2).

أي لا تتبعوا الخطوة التي هي خلقتكم. فإنها دعوة إبليس وهي تابعة صاحبها، وقال: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، أي نهى النفس الظاهرة عن الهوى﴾. والهوى الخلقة التي خلقت عليها وهي النفس الباطنة وإنما سمي تلك التربة نفساً. لأن عدو الله ادعاها، وإنما سماها هوى؛ لأنها مهما غلبت على النفس الظاهرة هويت بها إلى أمها، وأمها الهاوية.

---

(١) وردت الآية الكريمة في موضعين؛ هما: الأعراف ١٢، ص ٧٦، وهي قوله تعالى ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.

ونص الآية الكريمة ﴿يا أيها الناس كلو مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وذلك أن إبليس خلق من النار، وذلك قوله: ﴿وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾[1].

وقال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[2] يقول اتخذ الهوى أى نفسه الباطنة إلهه؛ فجعل بطبعها ما تأمر أو تنهى قد نصبها ربها بين عينيه؛ ثم شهد عليهم. أنهم كالأنعام ذكر أنهم أضل من الأنعام.

رجعنا إلى ما كنا فيه، فلما صارت النفس الباطنة. هوى إبليس عضو منه. كما ذكرنا أطاعت إبليس فيما كان يأمرها من الفحش والأباطيل والمعاصى. لم يكن للنفس الظاهرة بد من الإنقياد لها، والطواعية فيما تبر فكانت تواتيها[3] فيما يكره الله، وتنخضع لها؛ إذ كان فيها من الخبث مثل ما فيها.

وذلك أنها من تحت القدم، وهذه فيما بين القدمين التى لم يطأها؛ فايد الله عبده بما وسع عليه من الحلال، وأباح لها فأحل وحرّم.

فنبذ الحرام، والفحش، إلى إبليس فرفعه، ورمى الحلال الحسن إلى العقل فرفعه، فأمر بالحرام إبليس فأطاعته النفس الباطنة، فأشبهت الظاهرة فأرادت أن تطيعها وتنقاد لها، إذ كانت من جوهرها. وإن كانت الشهوة فيها متحركة. فنبذ الله إليها بالحلال فتعلقت الظاهرة.

إذ كان الغالب عليها ملكها فلم تنقد للباطنة. فعسكرت عليها الباطنة بجنود إبليس، وعسكر عليها الملك، وهاجت الحرب فيما بينها وهى مذبذبة بين ذلك وتلك دار حرب لا سلم أبداً، والجوارح فيما حولها قراها. فمتى كانت الغلبة للملك اطمأنت النفس الظاهرة،

---

(١) سورة القارعة الآيتان: ٨ – ٩.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٣.

ونص الآية الكريمة ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾.

(٣) (واتها) على الأمر مُواتاة، ووِتَاء: طاوعه.

ورضيت بما أحل الله لها، ومتى كانت الغلبة لها كانت منقادة منهوكة فى الحرام.

رجعنا إلى ما كنا فيه من التحليل. فأيد الله النفس الظاهرة بما أحل حتى حلها من وثاق الهوى وخلصها، وسجنها، وأخرجها من رقها. فقال: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾[1]، وقال: ﴿وكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً﴾[2]، ثم قال على فوره ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾[3] ثم بين سبب النهى فقال ﴿إنه لكم عدو مبين﴾[4].

فاعلم أن خطوات الشيطان هى التى تأمرك بالسوء والفحشاء، وهى نفسك الباطنة. حتى تشتهى فاطعمها الحلال. فإن الله أحل وحرم فمتى انتهى عن الحرام أبدل مكانه الحلال. وقال ﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾[5]، أى لم يكن لى فيما خلقت حاجة إنما خلقتها من أجلكم، فخذوها من وجهة ما أحللت. فقد جعلت الحلال بيناً والحرام بيناً وما حرمت إلا الخبائث، والفواحش، وما لا لذة فيه، وما أحللت إلا الطيب واللذيذ، ثم قال: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: آية

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٨.

(٣) سورة البقرة: آية ١٦٨.

(٤) سورة البقرة: آية ١٦٨.

والمقصود بخطوات الشيطان فى الآية الكريمة هى كل معصية لله تعالى، وقال عكرمة، هى نزعات الشيطان، وقال أبو مجلز هى النذور فى المعاصى.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٩.

فنص الآية الكريمة ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ..﴾.

(٦) سورة المؤمنون: آية ٥١.

ونص الآية الكريمة ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم﴾.

أى لا تطيعوا النفس الباطنة. فإنها تأمركم بالفحشاء والمنكر، وقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾.[١] أى من أطاعنى فى الحلال. فإن فى الحلال غنية عن الحرام. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾[٢] وقال ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾[٣].

فأباح أكل الحلال من الطيبات، واقتضى الشكر على ما أحل وأباح لا على النعمة، ثم قال ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾؛ فجعل شكر على إباحته لك الحلال عبودة وتوحيداً، ثم اعتذر[٤] فيما حرم ووصف الحرام فقال: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾[٥].

أى أنى لم أحرم عليكم إلا مثل هذه، فلو كنت أحللت لكم مكان هذه الطيبات تلك الفواحش والحرام ما كنتم تصنعون، وكيف كنتم تتناولون ذلك فاشكرون على أنى أحللت لكم شهوتكم التى تشتهون، وحرمت عليكم ما تستقذرون وتمجس نفوسكم إذا ذكرتموها.

وقوله ﴿وما أهل به لغير الله﴾[٦] الذى إذا ذبح لم يذكر عليه اسمى، ما تصنع به

---

(١) سورة الكهف: آية ٧.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٥١.

(٣) سورة البقرة: آية: ١٧٢.

(٤) الاعتذار من الله تعالى لا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى، وربما خان التعبير الشيخ رحمه الله فليس بالآية الكريمة اعتذار، وإنما هو تفصيل للمحرمات، وعلاقتها توضيحية وتفصيلية بالآية السابقة، فبعد أن أباح تعالى أكل جميع الطيبات، حدد المحرمات فيما ليس بطيب، ولا تنسحب عليه تلك السمة. وهذا يتضح من قوله إنما التى أفادت القصر تخصيصاً.

(٥) سورة البقرة: آية ١٧٣.

(٦) سورة البقرة: آية ١٧٣.

إذا ذاك قد اجتمع فيه سم الدنيا، وذلك أن اسمي مبارك، واسم الطاغوت والشيطان شؤم وسم، فإذا لم يذكر اسمي، وذكر اسم الطاغوت. كيف يهنأ ذاك في البطون، فإني إنما حرمت مثل هذه الأشياء؟، ثم قال ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾.[١]

فاقتضى الشكر أيضاً على أنه أحل لكم الحرام في أوقات الضرورة، وأباح لك التناول؛ ثم قال ﴿إن الله غفور رحيم﴾[٢] ، أي لا يأخذك على التناول من الحرام رحيم. من رحمته أباح لك الحرام عند الضرورة فهذا في الدنيا. وأما في الآخرة: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾[٣]، أي نهى نفسه الباطنة عن الحرام، وأعطاها من الحلال.

وقال: ﴿لكم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾[٤] ، لم أنتهى عن اتباع النفس الباطنة إلى الحرام، فهذه صفة النفس الظاهرة والباطنة، ولها سبعة أبواب شارعة إلى الجوارح والجوارح سبع قرى حولها.

فإذا كان الملك لها أميراً عليها جارياً سلطانه كان كلها ساكنة والقرى مطمئنة ﴿يأتيها رزقاً رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله﴾[٥] فطاعت الباطنة

---

(١) الآية السابقة.

(٢) الآية السابقة.

(٣) سورة النازعات: آية ٤٠.

(٤) سورة الزخرف: آية ٧١.

وتصويب الآية الكريمة هو ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾.

(٥) هذا دأب الشيخ رحمه الله في الاقتباس من آيات الذكر الحكيم، وهذا أمر يشير إلى تأثره الواضح رحمه الله بمعاني القرآن العظيم، وتراكيب آياته، وقدرته على استحضار الآيات في موضعها المناسب. والآية الكريمة التي اقتبس منها الشيخ رحمه الله هي قوله تعالى ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ سورة النحل ١١٢.

بالحرام، وتركت الحلال؛ ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[١] من موافقتها بما كرهه الله لها.

[امتناع إبليس عن السجود]

رجعنا إلى ما كان من شأن إبليس:

فلما أمر بالسجود تكبر وأبى وقال له: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾[٢] فابلس[٣] وصار شيطاناً رجيماً؛ أبلس من كل خير وسُلب لباس الرحمة، وصار عرياناً آيساً من رحمة الله، وفاسقاً اجترئ على الله أنْ قال له خلقت خلقاً أدنى مني وفضلته، وهو يعصيك ويفسد في الأرض ويسفك الدماء وأشقيتني في جنبه، وهو لم يعبدك طرفة عين، وأنا قد عبدتك عبادة لا يصف الواصفون صفتها، فما كان سبب ذلك قال الله: ﴿إني أعلم ما لاتعلمون﴾[٤]. قال إذاً سلطني عليه، وما تصنع؟ قال أجعله عابداً لي. قال: هو إن يعطيك في ذلك قال: إذاً سلطني عليه. قال: لك ذلك.

قال: وهل يمكني ذلك إلا بالأجل والعمر الطويل؟ قال لما تشاء. قال: ﴿انظرني إلى يوم تبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم وولده أجمعين﴾[٥].

---

(١) من الآية الكريمة ذاتها.

(٢) سورة ص الآيتان : ٧٧ – ٧٨.

(٣) أبلس أي تمرد وعصى. وإبليس : رأس الشياطين،÷ والجمع : أباليس وأبالسة.

(٤) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٥) سورة ص الآيات ٧٩ – ٨١. ونص الآيات الكريمة هو ﴿قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون • قال فإنك من المنظرين • إلى يوم الوقت المعلوم • قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ ولعلنا نلمح وجود خطأين في المخطوطة في الآيات الكريمة، الأول في إغفال كلمة رب في الآية رقم ٧٩، وزيادة كلمة ولده في الآية رقم ٨١.

[صفة آدم عليه السلام]

صفة أخرى:

وكان آدم رجلاً حيياً، كريماً، لا يعرف الشر في الجنة مع زوجته، يأكل منها رغداً حيث شاء. فاحتال عدو الله بكل حيلة العدو التي كانت فيه، والحقد على ما شقى في جنبه، وطرد من الملكوت، وغره بكل غرور. حتى دخل الجنة كما هو والقصة الطويلة.

ثم النعت إلى ما تقدم إليه على سبيل النصح، والعطف فقال: نعم داركما هذه إن لم يكن لها خوف.

قالا: ما هو؟

قال: هل نهاكما عن شيء؟

قالا: نعم. عن هذه الشجرة.

قال: وأخذ يحييه متحازناً[١] مودياً لها أنه يحزن لهما.

قالا مالك؟

قال: أنا من الملائكة الذين يعلمون الغيب.

قالا: وما تعلم من شأننا؟

قال: "مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين"[٢] فيما أعلمتكما من أخذ شأنكما.

---

(١) من الحزن، حَزِنَ الرجل حَزناً وحزناً: اغتم. وحزَّن الأمر فلاناً: أحزنه، وتَحَزَّنَ عليه.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٠.

ونص الآية الكريمة ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما روى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾.

قال: وما الحيلة؟

قال: "هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لايبلى"[1]، فكلا من هذه، فغرهما باسم ربهما. قال الله تعالى: ﴿وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾[2]، فأخرجا من الجنة؛ فلما هبطا إلى الأرض، وهبط اللعين قال مغتراً بجرأة الكفر، وحرقة الحقد: "ألم أقل لك أنه يعصيك ويطيعنى ويعبدنى فمن أطاع شيئاً عبده، ومن عبده صار عبده، فهو عبدى، وفيه لى أصل الخلقة دعوى إذ خلقته من التراب، والتراب من الأرض، والأرض أثر قدمي وموطئي وممشاى، وكان بها مسكنى. فخلقته من ملكي وملكى، وموضع قدمي، وقدم الواطئ حقه فى الحكم، وبه عصاك، إذ كان أصابه شؤمي وجرأتي، وبه ظفرت عليه.

قال : فما تشاء. قال: سلطنى عليه، قال: اذهب فقط سلطتك عليه، فاطلب منه دعواك.

قال إذ سلطتنى عليه فبعزتك لأغوينه وولده أجمعين قال الله: ﴿إن لى منه عباداً مخلصين ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[3] فقال إبليس اللعين: إلا عبادك منهم المخلصين فاستثنى اللعين على استثناء الرب عز وجل.

---

(١) سورة طه: آية ١٢٠.

والخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى آدم عليه السلام فقط، وليس لآدم وحواء كما يقول الشيخ (هل أدلكما). وهذا ما يتضح من النص الكريم ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢١.

(٣) هذا المعنى ليس نصاً قرآنياً صريحاً، ولكنه ورد ضمنياً فى آيات قرآنية ثلاث، فى سورة الحجر: آية ٤٠ وفى سورة الصافات: آية ٤٠، وفى سورة ص آية ٨٣، ونقرأ من هذا قوله ﴿قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ سورة الحجر ٣٩-٤٠.

[معاتبة إبليس]

باب معاتبة إبليس وسؤاله الآلة للحرب على آدم وولده والعون والظفر:

فقال يارب إذ سلطتنى عليه،[١] وشفيت صدرى منه. بما نبذت إلىّ فما سألت فزدنى قوة إلى قوتىَ.

قال: تجرى منه مجرى الدم قال: يهزمنى بذكرك. قال: قد وضعت فيه النسيان، والخطأ، والغفلة.

قال: يغلبنى بكثرة الولد، قال لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله.

قال: يغلبنى بالقوة التى فيه قال: ﴿ اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم﴾[٢] أن لا جنة ولا نار فقال، شفيت صدرى منه لأتينهم من بين أيديهم، الدنيا أزينها فى أعينهم ومن خلفهم، الذنوب فازينها وآمرهم بها وعن أيمانهم فانسها لهم، وعن شمائلهم التوبة فاؤخرها[٣] .

---

(١) قضية التسليط لها خلفية تاريخية، ينبغى إبرازها، فعندما خلق الله آدم عليه السلام كان جسداً من طين أربعين سنة، فمرت به الملائكة. ففزعوا منه لما رأوه؛ فكان أشدهم فزعاً منه إبليس؛ فكان يمر به فيضربه، فيصوت الجسد. كما يصوت الفخار يكون له صلصلة. يقول تعالى ﴿من صلصال كالفخار﴾ ويقول: لأمر ما خُلقت. ودخل من فيه فخر ج من دبره. وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه (ابن كثير ١/٧٦).

(٢) سورة الإسراء: آية ٦٤.

والنص الكريم هو قوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾.

(٣) يلمح الشيخ رحمه الله إلى بعض ما يفهم من قوله تعالى عن تربص الشيطان بالإنسان ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ سورة الأعراف: الآيات ١٦ ، ١٧.

[سؤال آدم]

باب سؤال آدم صلى الله عليه النصرة والظفر على عدوه وآلة الحرب وما يمنع العدو بنفسه:

فقال آدم سلطت على عدّوك، وأيدته بقوتك. فكيف أقوى به.

قال: أحفك بملائكتي.

قال: زدني.

قال: لا أخذك بالخطأ والنّسيان.

قال: زدني.

قال لا أكتب عليكَ نية السيئة.

قال: زدني. قال: فإن لم تعملها جعلتها حسنة.

قال: زدني. قال: أكتب لك ما نويت.

قال: زدني. قال: عملتها كُتبت بعشر أمثالها.

قال: زدني. قال: أزيدها إلى سبعمائة.

قال زدني. قال إلى أضعاف[1] .

---

(١) لعل هذا ما نجده في قوله صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شي فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة) .

قال: زدني.

قال: إذا عملت سيئة لم تكتب عليك إلى سبع ساعات[١] .

قال: زدني. قال: رحمتي سبقت غضبي[٢] . قال: يارب يغلبني بجنده وخيله.

قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه. وذلك قوله ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾[٣] .

قال: زدني قال: التوبة مبسوطة إن تبت، أو تاب أحد من ولدك إلى سنة قبلت منه.

قال: زدني قال إلى شهر.

قال: زدني. قال: إلى ساعة.

قال زدني قال: ما لم يغرغر[٤] .

---

(١) نقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾. سورة ق الآية ١٧، حديثاً عن أبي أمامه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" .

(٢) هذا جزء من حديث صحيح، رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه "لما خلق الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي".

(٣) سورة الرعد/ الآية ١١.

(٤) هذا المعنى نجده في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

قال فما آلتي. قال: أنزل عليك كتبي.

قال: زدني. قال أرسل إليك رسلي.

قال: زدني.

قال: أؤيدك بالصدق ما لم تفارقه لن يغلبك.

قال: زدني قال: أعلمك كلامي.

قال: زدني.

قال: جعلت الأذان وراثة في ولدك.

قال: زدني. قال اتخذ لك مسجداً تزورني فيه.

قال: زدني. قال: جعلت ذكرى شراباً لك.

قال: فما جندي؟

قال: ما يتحلق رئيسهم وقائدهم العقل.

قال وما العقل؟ وما الجنود؟

قال العقل ملك وله سلطان وهو المعرفة، وقائده العقل ومعدنه الدمغ ومسكنه في الصدر، وسلطانه في جميع الجسد، وله مائة عون كل عون في أمر.

[سؤال إبليس]

باب سؤال إبليس المدد وآلة الحرب والجنود والأعوان على آدم :

ثم تقدم عدو الله إبليس. فقال سُلطت على آدم، بعدما جعلتني مذموماً مدحوراً، وأشقيتني في جنبه، و سلبتني خلعة الكرامة، ولباس الملائكة من أجله، وأعطيته آلة الحرب والجنود ونصرته وقويته، ونصبت الحرب بيني وبينه. فما آلتي وما جنودي؟

قال ما تشاء.

قال أعطيته الكتب فما كتابي؟

قال كتابك الوشم(١) . قال فما رسلي؟

قال: الكهنة(٢) .

---

(١) الوشم، وهو أن يُغرز عضو من الانسان بنحو الإبرة، حتى يسيل الدم، ثم يُحشى بنحو كحل، فيصير أخضر، وهذا تغيير لخلق الله.

ولذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله".

(٢) العلاقة بين الكهان والشيطان أمر أخبر عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث صحيح، ومن ذلك ما ورد في صحيح الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الملائكة تنزل في العنان (السماء) فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم" .

وقد وردت أحاديث كثيرة تعضد ذلك في تفسير قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ . الآية ٢٣ .

قال فما حديثى؟

قال الكذب.

قال فما قرآنى؟

قال: الشعر.

قال: فما مؤذنى؟ قال العطان والمزمار.

قال: فما مسجدى؟ قال السوق.

قال: فما بيتى؟

قال: الحمام والكنائس.

قال فما طعامى؟

قال ما لم يذكر اسمى عليه.

قال فما شرابى؟

قال: كل مسكر.

قال: فما مصائدى؟

قال: النساء.

قال: فما سلامى؟

قال: النساء.

قال أعطيته جنوداً فما جنودى؟

قال ما به خلق من أخلاق السوء والهوى مليك فى ضدى كل خلق من أخلاق آدم. قال: فرضى اللعين.

[صفة المعرفة]

باب صفة المعرفة وصفة لباسها :

قال الله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾[1] فالقلب مضغة خلقها الله من بطانة الأرض مما لم يمسه وطئ إبليس، ولا خطوته. لأنه كان في سابق علمه أنه معدن معرفته. ومن ذلك لا يجد الشيطان عليه سبيلاً حيث قال: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[2] .

أى على قلوبهم، ومنه قيل "القلب بيد الرحمن"[3] ومنه في الحديث أنه سأل ربه خصلة فقال ما هى يا إبليس؟ قال: السبيل على قلبه.

قال: ذاك محرم عليك أن تدخله أو تسلط عليه ولكن لك سبيل، ومجرى من النفس وأصل في العروق إلى حد القلب.

وأصل العروق في النفس ورأسها في القلب. فإذا دخلت العروق وجرت فيها عرقت من ضيق المخرج. فامتزج بماء الرحمة في مجرى واحد.

وجرى إلى القلب مع شؤمك ونفختك ونتنك وظلمتك، ووصل إلى القلب سلطانك فغلبت صاحبه، ومن أردت به خيراً واخترته وجعلته ولياً، أو صديقاً، أو نبياً فلقت العروق من باطن القلب، ونزعتها منه فصار القلب سليماً. فإذا دخلت العروق وجريت فيها لم ينالـه شؤمك ولم يصل إليه سلطانك، ولا ظلمتك إذا كانت أصول

---

(١) سورة الزمر / الآية ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء / الآية ٦٥ .

(٣) ورد هذا المعنى الذى يشير إلى ان القلوب بيد الرحمن تبارك وتعالى في أدعيته، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك) .

العروق منقطعة من باطن القلب، وصار ما بين القلب، وبين أصل العروق فرجة فرضي اللعين بذلك.

وقد ذكر الله ذلك في كتابه ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]. فالقلب السليم الذي نزعت منه أصل العروق، ومنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم شق عن قلبه وأخرج منه العلقه، ونزعت منه أصل العروق ثم يختم عليه[2].

فالقلب وإن كان شريفاً. فإنه قد خلق مما خلقت منه النفس، ولكن التفضيل ما بينهما.

إن النفس خلقت من أديم الأرض وظاهرها، والقلب من باطنة الأرض. والأرض خلقت من كدرة الماء وخبثه وزبده وأصلها من الماء، فهي يابسة خشنة، والنور من اللطف، فإذا تخلى القلب من النور ومائه ورطوبته ونظافته رجعت إلى جوهرها من الأرض يابسة خشنة.

فإذا دام بها ذلك قسا القلب أي يبس، وصارت إلى حالتها وجوهرها. ولما اجترأ إبليس ما احتج على آدم وفضل نفسه عليه نظر في نفسه، واعتبر جوهره

---

(١) سورة الشعراء / الآية ٨٩ .

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى واقعة شق صدره - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ سورة الإنشراح الآية ١ .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة، فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا" قال قتادة قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال "فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه حتى حشي إيماناً وحكمة" وقد ورد الحديث بروايات عديدة، وجميعها صحيحة، والله تعالى أعلى وأعلم .

فقال ﴿خلقتني من نار﴾[1] والنار من النور وخلقته من تراب والتراب من الظلمة، والنور أبداً غالب على الظلمة، ولم يلتفت اللعين إلى أن التراب من الطين، والطين من الماء والماء حياة كل شي. والماء يطفئ النار فلذلك احتج بما احتج .

خلق آدم عليه السلام:

وأما أصل معرفة المعرفة، ومعرفة جوهرها، فإن الله لما أراد أن يخلق آدم جميع وجه آديم الأرض في الموضع الذى أراد أن يتخذ منه البيت، وهو الكعبة، ثم رفع تربته منه وعجنتها بماء الرحمة، ثم جعل فيه نور المعرفة كالخميرة، لم خمرها، ووضعه أربعين يوماً حتى نشف فيها نور المعرفة، وامتزج بها ماء الرحمة.

وخرج ما كان في باطنها إلى ظاهرها من النور والبهاء، ثم فتح خزائن الصور، فاختار أحسن الصور، فرفع مثاله وصورته منها، ثم رفعها فصور منها آدم على أحسن صورة[2] ، ثم نفخ فيه من نور الحياة فأحياه بالنور، وحركه بالنفخ والنور والروح، وهو روح الحياة، فإن للروح حياة، فلم تدب الحياة في جسد آدم، ولم تكتمل عروقه حتى قذف الله فيه المعرفة وهو أصل النور، الذى كان وضع في آدم، حيث خمر طينته به فلما التقى نور المعرفة والمعرفة في القلب استبشرا، وابتهجا، واقتربا حتى اتصلا، فلما اتصلا تعارفا، فلما تعارفا عرفا.

عرف النور المعرفة، والمعرفة النور، إذ كانا متصلين في البدء، وفي مكان

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٢ - سورة ص/ الآية ٧٦.

(٢) نقرأ في هذا حديثاً أورده الإمام البخارى في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام وطوله ستون ذراعاً، ثم قال له اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك، فقال السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"

واحد عند الملك الأعلى، منتصباً بين يديه، فاجتمع نوراهما على القلب، وسطعا بنوريهما، فأنار القلب، وأضاء من سلطان النور، وسطع منهما شعاع إلى العرش فوقف بين يدى الجليل، فاتبع القلب بصرعينه حتى انتهى منتهى الشعاع، فشاهد نور القربة، وأبصر الجلال، وحُجب إليها.

فالتقى نور القربة ونور الشعاع، وهو نور المعرفة والمعرفة بنفسها، فعرف ربه فلما أذن له بالكلام أبرز ما كان عاين وشاهد وعرف.

فقال لا إله إلا الله. فلما التمس الروح المنفذ والمسلك للخروج، إذ ضاق به ذرعاً، والكون فى موضع مضيق كريه هائل مظلم، وقد كان مُخلاً عنه فى ساحات الملكوت[1]، فلم يجد السبيل اضطرب، فنظر إليه الرب نظرة كى يقر، فارتعد من هيبة سلطانه، فسكن فخرج النفس منه، ثم استقر، فقال الحمد لله.

فلما أخرج ذريته منه. تالهم ذلك النور من الموضع فى الذى هم منه يوم التخمير بالحصص، فصار لكل منه حظاً على قدر ما كان في القضاء في سابق علمه.

فمن كان فى سابق علمه أنه لا يؤمن، ولم يرده بالمعرفة، ولم يمده بها، وتركه على ذلك النور الذى جبل عليه أبوه آدم، ولم يعرف ربه. لأنه لم يقذف إليه المعرفة، ليعرف المعرفة، ليعرف النور المعرفة، والمعرفة النور، فيعرف صاحبها ربه وعلمه إن سألته عنه لم يعرفه، ومن ذلك قوله ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾[2]، وهو النور نور

---

(١) خَلاَ المكان والإناء وغيرهما خُلُوًّا، وخلاء: فرغ مما به. وخلا الشئ: مضى وذهب. وخلى الأمر: تركه. ومعنى مُخلاً عنه أى مُفرغاً متروكاً.

(٢) سورة الروم / الآية ٣٠.

ونص الآية الكريمة ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

المعرفة وقوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[١] .

ومن كان في سابق علمه أن يؤمن أمده بالمعرفة، وقذفه إليه، فالتقيا وتعارفا وسطع نوراهما إلى الملك، فدلا صاحبهما على ربه، فاتبع القلب بصره إلى ما سطعا، فوجدهما بين يدي الجليل في نور القربة، فعرف العبد ربه، ومن ذلك قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾[٢] .

وهو نور المعرفة ﴿ويتلوه شاهد منه﴾[٣]، وهو المعرفة وإنما جمع تربته في موضع الكعبة، لأنه كان في سابق علمه أن يتخذ لهم قبلة.

وأما المعرفة فإنها إن سأل: أفعل الله هي، أم فعل العبد؟ فإن المعرفة هي من فعل العبد والمنسوبة إليه، وبها يصير محموداً عند ربه وبخلوه منها يصير مذموماً، ولكن النسب الذى به وصل العبد إليها خمسة أشياء، وهو ليس إليه، ولكنه محمود عند ربه باستعمالها، ومدرك بها معرفة ربه.

وهي: الفهم، والذهن، والذى، والحفظ، والعلم.[٤] وهو ذكر الفطرة، وهي من الله لعبده، وليس إلى عبد منهن شئ.

---

(١) سورة لقمان / الآية ٢٥ - سورة الزمر / الآية ٣٨ .

(٢) ، (٣) سورة هود / الآية ١٧ . ونص الآية الكريمة هو ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .

(٤) الأشياء الخمسة التي عددها الشيخ رحمه الله والتي توصل العبد للمعرفة، وتؤهله لمعرفة ربه تعالى، وهي: الفهم، والذهن، والذكاء، والحفظ، والعلم . هذه الخمسة هي نواتج عمل العقل أو التعقل. على أن ثمة خلطاً بها، فكلمة الذهن من الكلمات التي تتسع دلالتها عند أهل اللغة فهي تشمل: الفهم والعقل. يُقال: ذهن ذهناً: فطن. وفطن الشي: فهمه وعقله فهو ذهن، وهي ذهنة. وربما أراد الشيخ رحمه الله بالذهن التفكير والتفكر وهذا صحيح أيضاً وفق التفسيرات المعاصرة للذهن بأنه يطلق على التفكير وقوانينه، أو مجرد الإستعداد للإدراك .

ولكنه محمود باستعمالها مذموم بترك استعمالهن وأما نور المعرفة فهو من ا لله وليس الى العبد منه شيء.

وذلك أن ا لله عز وجل لما أراد أن يخلق آدم خمر طينته بيده وولى تصوين بنفسه[1] ، وخلقه من شيئين من أدنى شيء وأخسه، وهو التراب، وأعلا شيء وأشرفه وألطفه وأطيبه وهو ماء الرحمة، ووضع فيها شيئاً هو أشرف الأشياء وأبهاها، وأنورها.

اخرجه من خزائن الربوبية، وقدّره بعلم الوحدانية عليه لباس الألوهية، محشو بنور الجلال والفردانية يحكي عن رب قديم، وإله عظيم، وقادر لطيف ليس كمثله شيء، وهو الحكيم الخبير، وهو نور المعرفة.

ثم وضع فيه تلك الأشياء الخمسة التي ذكرناها، ثم وضع الطينة تحت عرشه أربعين خريفاً حتى شرب فيه كل ما وصفنا، وخلص إلى عضو وعرق ومفصل منه، من قرنه[2] إلى قدمه.

---

(١) قضية خلق آدم عليه السلام على نحو ما يذكر الشيخ رحمه ا لله من كونه تعالى خلقه من تراب وماء أي طين كما قال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ الحجر ٢٦، وقوله تعالى للملائكة ﴿إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ ص٧١-٧٢ . هذا أمر لا خلاف عليه في كون الطين مشتملاً على التراب والماء. وما ذكره الشيخ عما سماه ماء الرحمة لم نجد له تدعيماً من أراء المفسرين في تناولهم للآيات الكريمة في مثل قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾ الفرقان ٥٤ . ﴿وا لله خلق كل دابة من ماء﴾ النور ٤٥ . حيث توقفوا رحمهم ا.لله عن نعت الماء بكونه ماء الرحمة أو ماء الحياة. وهذا من أجتهاد والشيخ رحمه ا لله وا لله تعالى أعلى وأعلم .

(٢) يقصد بالقرن هنا أعلى آدم عليه السلام، أي رأسه وا لله أعلم .

ثم نفخ فيه الروح حتى إمتلأ منه، واستقر فأخذ كل شيء من آدم حظه من نفخ الروح، ومن النور الذى وصفته، ومن قربة التصوير، وصنعة اليد، ومن تلك الأشياء الخمسة التى وصفنا، وأصاب جميع ذريته حظوظهم من ذلك كله، وهم فى صلبه كل على حياله وحصته، وصارت تلك الثلاثة عندهم آية لربهم ودليله عليه، واستدلوا بها على ربهم.

إذ نالوا من التصوير صنعة اليد والقربة، ونالوا من النفخ الحياة، إذ كانت الحياة من حيوية فحيوا بها، ومن النور الذى ذكرنا وهو نور المعرفة الروية[1] بلا كيفية، ولا حد.

وإنما رأوا ذلك بتلك الخمسة التى ذكرنا. ولو لم تكن تلك لم يقيموا على ذلك كله، ولم يقدروا على معرفته.

أما الذهن فبه توصل إلى كل ما خفى عليه، وأما الفهم فبه مدرك المغيب، وأما الذكاء فبه يستخرج المكنون بالتحقيق، وأما الحفظ فبه يحاط، وأما العلم فبه يدبر ما غاب، فباستعمال هذه عرفوا ربهم، وبها فهموا عن ربهم، ووقفوا على صنائعهم، وحفظوا ربهم، وبها فهموا عن ربهم، ووقفوا على، صنائعهم، وحفظوا ما نالوا منه، وأسماؤهم فى المقادير، وهم فى صلب أبيهم آدم ذلك هدى العلى العليم، فلما أخرجهم من صلبه يوم

---

(١) الروية أى النظر، والتفكر فى الأمور . وأصلها تَرَوَّى، ورَوِىَ فى الأمر: نظر فيه، وتفكر .

الميثـــاق[1] ، وضعهم على كفه فمآلهم قربته فاســتعملوا الأشـياء الخمسـة، فدلتهـم تلك القربة على هذه القربة.

إن كلاهما من الرب الرحيم فايقنوا به فلما كلمهم دلهم نفخ الـروح على أن الكلام من الذى نفخ الروح يومئذ، إذ كان له عندهم بينة عليه فيه، ثم لما تجلى لهم عن وجهه الجليل سطع منه نور على وجوههم، وغشـيهم بـه دلهـم ذلـك النـور الذى وضع فى أبيهم، وهو نور المعرفة على أن النور الذى غشيهم اليوم من الجليـل الجميل، فعرفوا رباً واحداً فرداً صمدا.

وذلك أنه لما اتفق النوران والتقيا سطع على أعين قلوبهم النـوران الربانيـان دلاهم على ربهم الفرد الواحد، فعرفوه وأيقنوا به.

ويرون ذلك كله باستعمال تلك الخمسة التى وصفنا. فالعبد فى استعمالهن محمود ، وفى تركهن مذموم على كل حال، وفى كل وقت، وفى كل مكان.

---

(١) يوم الميثاق، وهو يوم الذر، حيث أخرج تعالى من ظهور بنى آدم بعضهـم مـن بعـض، وجعـل لهـم عقولاً كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهــم وأنـه لا إلـه غـيره، فـأقروا بذلـك والـتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض. وقيل: إنـه سـبحانه أخـرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها. وهذا ما نجده فى قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ الأعراف آية: ١٧٢ . وألفاظ الآيـة تقتضـى أن الأخذ إنما كان من بنى آدم وليس لآدم فى الآية. ووجه النظم على هـذا: وإذ أخـذ ربـك مـن ظهور بنى آدم ذريتهم. وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلهــم بنـوه، وأنهـم أخرجـوا يـوم الميثاق من ظهره. فاستغنى عن ذكره لقوله (من بنى آدم) .

وذلك أنه إذا لم يستعملهن في كل وقت، ونسى صنيع ربه به، وما أكرم به من النفخ والنور والقربة يوم آدم، ولم يذكرها، ولم يحفظها بالفهم والذهن لم يعرف ربه يوم الميثاق، إذ لم يكن عنده ما يستدل به على كلامه وقربته ونوره الذى نالهم وهم في كفه[1].

فالمعرفة واستعمال تلك الخمسة على العد مطالب بهن، ومحاسب عليهن، محمود على استعمالهن، مذموم على تركهن.

ونور المعرفة من الرب ليس إلى العبد منه شيء، ولا له عليه ذم ولا مدح، إذ كان ذلك من فعل الله بعبده وإكرام له به.

فإذا استعمل العبد تلك الخمسة. خرج النور من المعرفة، لأن النور يتمكن فيها، والمعرفة متمكنة فى تلك الخمسة فإذا استعملهن خرجت المعرفة، فإذا استعمل

---

(١) هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق، حيث نجد إشارة صريحة فى النصوص الدينية على أنه تعالى أخذ عليهم الميثاق أى على الأرواح فى يوم الذر – وهم فى كفه تعالى . ونجد أحاديث عديدة فى تفصيل كيفية أخذ الميثاق، ونجد إشارة لمسألة الكف واليدين، ومن ذلك ما رواه الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل رجل منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم .. الحديث» . والإشارة الصريحة للكف نجدها فى قوله صلى الله عليه وسلم مما رواه ابن جرير وابن مردويه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه «إن الله عز وجل قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه، ثم قال هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار. كما نجد إشارة إلى نثرهم بين يديه تعالى فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قال (ألست بربكم ..).

المعرفة بدر النور المتمكن فيه وهو نور المعرفة.

فالتقى النور الميثاق الذى غشيهم، وسطع من الجليل عنه التجلى فتشاكلا، ولم يتشابها، دلا على ربهما، فاستدل العبد على ما سطع يوم الميثاق بما كان عنده من النور الذى وضع فى آدم، فدل كل واحد منهما على نفسه آمن العبد وأيقن واستقر وعرفه.

ومثل ذلك مثل القدح. فالنور كالنار، والمعرفة كالحديد متمكن فيه النار، وهو النور الأول يوم المقادير، والحجر التجلى، يوم الميثاق، والنور متمكن فيه، والقلب كالقطنة المندوفة[1]، فلما قدح[2] العبد الحجر بالحديد، خرج منهما النار، فالتقيا على القلب قبلهما القلب، فنوّراه ودلاه على الله عز وجل.

وأما الكافر فإنه لما سطع نور الجليل على عينه يوم الميثاق، وناله فمسه الكف، وقربه الكلام لم يكن عنده ما يستدل به عليه فيعرفه، تاه وتحير، وذلك أنه نسى الصنيع الأول بترك استعماله تلك الخمسة، وصارت حديدته وهى المعرفة، كأنه لا ماء فيها، فلم يعمل ذلك السطوع وتلاشى النار، وبطل، ولم يقبل القلب، إذ لم يجد شاهداً على ذلك، فصار مشتبهاً مشركاً قال الله تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾[3].

فالبينة التى هى من ربه هى النور المقاديرى، والشاهد الذى يتلو من النور الميثاقى، وقال: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينه﴾[4] ، وقال:

---

(١) المندوفة: أى المنفوشة . نَدَفَ القُطْن نَدْفاً : نفشه بالِنْدفَ ليرق، فهو مندوف ، ونديف .

(٢) قَدَحَ بالزند قدحاً: ضرب به حجره لتخرج النار منه. ويقال: قدح النار فى الزند: أخرجها منه. وقدح الزّنْدَ: ضربه بحجر ليُخرج النار منه .

(٣) سورة هود / الآية ١٧ .

(٤) سورة الأنفال / الآية ٤٢ .

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[١] .

ألا ترى أن العين لنوره لا يبصر شيئاً، حتى يؤيد بنور المدد، ليلتقيا بنوريهما على الشي، فتبصر الأشياء .

فنور العين نور المعرفة متمكن فيها، وهو النور الذى وضع فى آدم، ونور المدد النور الميثاقى من الحلال. وهو نور النار، أو السراج. فما لم يلتقى النوران على العين لم يبصر الإنسان الشي فكذلك ما وصفنا.

ألا ترى أن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى الكوكب والقمر والشمس قال هذا ربى، فلما استعمل الخمسة الأشياء، واستدل بما كان عنده، ولم يتفق، ولم يشاكل، نفاه فقال: لا أحب الآفلين[٢] .

وتزامن كل واحد منهما، ذلك أنه لما وقع بصره على النور. ظن أنه نور ربه فقال هذا ربى، فلما استدل بما كان عنده من النور القاديرى الربانى والنور الميثاقى المؤيدين، واستعمل قدحه الذى ذكرنا لم يعمل شيئاً، وتلاشى ذلك النور فى جنب ما كان عنده ولم يتشاكلا، ولم يدلا على ربه كما دل الأولان، ولم يعتل[٣]

---

(١) سورة الزمر / الآية ٢٢ .

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى الآيات الكريمة فى سورة الأنعام من ٧٥ إلى ٧٩، وهى قوله تعالى :
﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ .

(٣) اعتل الرجل ونحوه: مرض . واعتل بالأمر: تشاغل وتلهى . ويريد الشيخ أن يلمح إلى إحدى صور مرض القلب، وهو اعتلاؤه، بتشاغله بالدنيا وزخارفها .

فطنة قلبه، ورآه زائلاً. علم أنه ليس من ذلك النور، وتبرأ منه، وفزع إلى ربه فقال: ﴿إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض﴾[1].

وذلك من الله عز وجل له ابتلاء واختبار، إذ أراد أن يتخذه لنفسه خليلاً، ولا يتوهم فيه أنه شك فى ربه، وهذا غور بعيد لا يمكن صفته، وفى قدر ما وصفنا كفائه المستنبط العليم .

تفسير قوله تعالى ﴿ألست بربكم﴾:

تفسير قوله ﴿ألست بربكم﴾[2] – قال له قائل: فقوله: ﴿ألست بربكم﴾، ما هذه الألف ها هنا؟

قال له وجهان: وجه باطن، ووجه ظاهر.

أما الوجه الظاهر فهو وجه للاستفهام، والاستفهام من السائل للمسئول لصف الجواب، وهو التلقين والإشارة إلى ما عند المسئول فى قلبه من الموجود، والمُدرك، والمفهوم، والمعلوم، والموصوف، كذا وجدنا فى مجارى كلام العرب.

وإنما استفهم الرب فى ذلك الوقت، لأن نور المعرفة كان عندهم بالحظوظ التى أصابوا من أبيهم يوم الخلقة، وقربة النفخ، وقربة التصوير، وصنعة اليد.

فقال: ﴿ألست بربكم﴾ يذكرهم، ويستحفظهم، ويستجلبهم للذكر من ذلك الصنع الذى صُنع بهم يوم آدم، وما أكرمهم به من النور، ونفخ الروح، وصنعة اليد،

---

(١) سورة الأنعام / الآية ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٧٢ . وهو قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾.

ليذكروا ذلك، ويستعملوا أفهامهم، وأذهانهم، فيبرزوا بهن نور المعرفة، فيستدل به على ذلك، فيعرفوه، ويؤمنوا به.

ولا تكون المعرفة أبداً دون الرؤية، والسمع، أو القربة كأن ما قبل ذلك فإذا لاقاه بعد ذلك قد سبق منه إليه قبل ذلك من قُربة، أو رؤية، أو لقى، أو سمع، أو صفة دالة عليه، أو آية تشير إليه بما فيها، أو معنى يؤدى عنه، فذكر نفسه ذلك، واستعمل الذهن، والحفظ في إصابته، والوقوف على معرفته، فدله الذهن، والفهم، والحفظ، فقيل عارف.

ولا يقال هذا علم[1]، فهو عالم. يستفهم العالم بالشئ والجاهل، فيقال: ﴿ألست﴾ تعمل الكتابة والحساب؟ والمستفهم لا يعلم أن المستفهم يعلم أن المستفهم كانت أم لا، ولا يستفهم العارف بالشئ غير العارف، ولا يقال الغير العارف[2]: ألست بالكاتب حتى يعلم أنه به عارف؟

فإذا كان له منه معرفة قبل ذلك به استفهم، فقال: ألست بكاتب؟، فيقول: بلى فذلك هذا الإنسان على أن بنى آدم قد كانوا أصابوا حظوظهم يوم الخلقة من صنعة اليد، والنفخ، والنور، وصار ذلك عندهم رسماً على أعين قلوبهم.

---

(١) الفرق بين العلم والمعرفة من الأمور التي، حرص الشيخ رحمه الله على إثباتها في أكثر من موضع، ويبدو لنا التداخل اللغوى بينهما ومن ذلك: علم الشئ علماً: عرفه. وعرف الشئ: عرفاناً ومعرفة. فالعلم يفسر بالمعرفة كما هو واضح . والمعرفة هي إدراك الشئ بحاسة من الحواس. وأما العلم فهو إدراك الشئ بحقيقته. ورغم أن كلاهما إدراك لكن العلم مرتبة أعلى من المعرفة، لما فيه من تعمق واستنباط وربما أراد الشيخ رحمه الله أن يقول هنا: ولا يقال هذا عالم .

(٢) لعل السياق يقتضى أن يقول الشيخ رحمه الله: ولا يقال لغير العارف، بدلاً من ولا يقال الغير العارف، فالمستقر لدى علماء اللغة عدم استحسان دخول (آل) على (غير)، ولذا نقول: ولا يقال غير العارف، إذا كان السياق هنا يستلزم ذلك، لكن ما يتضح من الكلام السابق أن نقول: ولا يقال لغير العارف .

فلما رأوا نوره يوم الميثاق، وسمعوا كلامه، ونالوا قربة كفه استنار ذلك بما كان عندهم، فدلهم ذلك عليهم فعرفوه، فلما استفهمهم قال: ألست بربكم؟ ألست تعرفونى بالعلائم، والشواهد، والبينات والآيات التى عندكم.

قالوا: بلى، فقبل ا لله شهادتهم، وإقرارهم، فجعلهم عبيده من بين الخلق وصفوته ومجتباه، وأحبابه وأوليائه، وأقر الوجه الباطن فهو أن الألف أول الأسماء وأشرفها ومبتداها، وأن جميع أسمائه التى يُعرف ومـا لا يعرف خرجت منها، فهو محشور بجميع أسمائه وصفاته كأن الأرضين كلها خرجت من تحت الكعبة ومدت منها مد الأديم[1] .

وكذلك خرجت جميع أسمائه منه. والألف فى الكتابة حرف منتصب من وصل ولا فصل لا انحراف فيه، ولا أعوجاج، فهو اسم ا لله ذلك بحرفيته وانتصابه واستقامته من غير انحراف، ولا اعوجاج، ولا تمايل على المسمى الذى هو اسمه، وأنه واحد أحد فرد صمد أبداً دائم عدل تام بارى قائم بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وهو فى التهجى وباستعمال الأدوات. يليه أحرف ألف ولام وفاء، ثم الألف منها ثلاثة أحرف، واللام حرفان، والفاء حرفان فى التهجى، وفى الكتاب حرف معرف.

---

(١) نجد حديثاً شريفاً يشير إلى أن أول ما خلق ا لله من الأرض الكعبة المشرفة، وهذا أمر له دلالته فى كون الكعبة مركز الأرض جميعها، مما أكدته البحوث الجغرافية والفلكية، والحديث الشريف هو قوله صلى ا لله عليه وسلم (أول ما خلق ا لله من الأرض الكعبة، ومُدت الأرض من تحتها مداً، وأول ما خلق ا لله من الجبال جبل ابى قبيس، ومدت الجبال من تحته مداً) والأديم الذى ذكره الشيخ رحمه ا لله يراد به إما ظاهر الشئ من قولنا: أديم الأرض. أو ظلمة الليل من قولنا: أديم الليل. أو بياض النهار من قولنا: أديم النهار.

واللام في التهجي لام وألف وميم، والفاء فاء وتاء، فمن الألف وهو الثلاثة الأحرف يخرج ثلاثة أسماء الله، واللطيف، والفاضل الله من الألف، واللطيف من اللام، والفاضل من الفاء، ثم يخرج من لام ألف إسمان لطيف، ومجيد. اللطيف من اللام، والمجيد من الميم.

ثم يخرج من الميم الذي خرج من اللام ألف اسمان ملك ومهيمن، ثم يخرج من ميم الملك ولامه وكافه ثلث أسماء المولى والمجي والمميت، ومن ميم المهيمن وهائه ويائه وميمه الآخر، ونونه خمسة أسماء المعطي من ميمه الأول، والهادي من الهاء، والحكيم من الياء، والمكرم من الميم الآخر، والنور والناصر من النون، فعلى هذا المثال يخرج من الألف جميع الأسماء والصفات، وهو في الكتابة حرف، وفي التهجي ثلاثة أحرف .

فقوله: ﴿ألست بربكم﴾ لما أراد الله أن يأخذ عليهم الميثاق. أبرز لهم هذه الألف على مثاله الذي وصفت حرفاً منتصباً في صدورهم، على أعين قلوبهم، ثم أشار لهم حتى إذا رأوه، ونظروا إلى حرفيته وانتصابه واستقامته من غير انحراف، ولا اعوجاج، وفرديته من بين الحروف وصموته[1] وقفوا على معنى ربهم، وهو في القول ثم قال: ﴿ألست بربكم﴾، والألف بمثاله على أعين قلوبهم، يسيرهم إلى وحدانيته الملك، ويدلهم آياته وصفاته، فأجابوا ربهم ببلى.

واستدلوا باسمه الألف بحرفيته واستقامته ودلالته على ربهم وشهدوا له بالوحدانية، وأقروا له بالربوبية، وايقنوا بالفردية، وأُعلموا أن الله تعالى إنما أبرز لهم هذا الإسم من بين أسمائه وصوره على أعين قلوبهم، ليستدلوا به عليه، ويعرفوه

---

(١) الشيء المصمت هو الذي لا فراغ فيه، وهذا الأمر ينسحب على حرف الألف .

بالآيات التي تشير، الألف بما فيه إليه، ويوقنوا بالمعاني التي تؤدى الألف عنها، ويقروا بالصفات التي يدلهم الألف عليها، فاستدلوا بوحدانية الألف على أن المسمى الذى الألف أسمه واحد أحد.

واستدلوا بفرديته على أنه فرد، واستدلوا بانتصابه واستقامته على أنه عدل قائم بالقسط، واستدلوا بصموته على أنه صمد[1]، واستدلوا بحرفيته على أنه وتر، واستدلوا ببنونه على الوصل والفصل على ديمومته وقدمه، واستدلوا ببعده عن أن يشبه الأشكال على بونه وبعده عن الكيفية ومنتهى وحدوديته.

فعرفوه بالصفات، والآيات، والبينات معرفة بلا كيفية، ولا محدودية، وأقروا له بالربوبيه، ولأنفسهم بالعبودية، فأجابوه بثلاثة أحرف، وهى الياء واللام والياء. فقالوا: بلى. فرضي عنهم، وقبل منهم. وجعلهم فى كنفه ثم صب عليهم النور، وأشهدهم على أنفسهم، وأشهد الملائكة بذلك عليهم، وكفى بنا لله شهيداً، ولهذا غور بعيد لا يمكن استفراغه، ولا استفحاصه، ولكن فى قدر ما وصفنا كفاية وهداية لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وإنما أجابوه بلى، ولم يجيبوه بنعم، وبلى لثلاثة أحرف ونعم أيضاً كمثله ثلاثة أحرف، لأن فى بلى ما ليس فى نعم، وفى نعم ما ليس فى بلى، وإن كانا فى الحروف سواء لأنه ليس لنعم عند الاستفهام موضع، ولا معنى. لأنه ليس فى حروف نعم ما يكون جواباً للاستفهام، ولهذا غور بعيد. لايمكن وصفه، ولكن سنشرح منه شيئاً ليفهموه. إن الباء اسم يخرج منه اسمه البرّ، والبر، والرب واحد

---

(١) الصمد: الذى يُصمد إليه فى الحاجات والصمد هو السيد المحتاج إليه فى النوازل والحوائج وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير: الصمد المصمت الذى لا جو له.

فى القلب، فلما قال ا لله تعالى يوم القيامة ﴿ألست بربكم﴾ .

نظروا فقالوا: إن لله أسماء كثيرة. وإنما استقررنا من بين أسمائه باسمه الرب[1]، والرب من البر، والبر مخرجه من الباء، والباء حرفان باء، وألف، وإنما يريد ربنا أن نقر له باسمه البَر، ونجيبه به، والباء الذى فى أوله بالإضافة. والثانى اسمه البر، والبَرُّ[2] من البار، وفى البار الألف، وهو اسمه الأول، فاقروا له به وأجابوه باسم هو فى الحروف حرفان باء وراء، والألف فيما بينهما مندمج لا يبرز إلا فى وقت تهجى الباء ليكون إقرارهم له باسم ا لله، وجوابهم له بحرف يوافق حرفه الذى ابتدأ أول كلامه من قوله: ﴿بربكم﴾ الباء الذى قبل الراء وذلك أنهم إذا أجابوه بالباء ودخل فيه أشرف الأسماء، وأولها وهو الألف. مع ما وافقوا فى جوابهم له ببابهم الذى ابتدأ، وجوابهم من قول الرب: ﴿بربكم﴾، وقولهم: ﴿بلى﴾ فجعلوا مفتتح الجواب بمفتتح الاسم الذى استقررهم واستفهمهم به ليتفق الباءان من الكلام من قوله: ﴿بربكم﴾ وقولهم ﴿بلى﴾ فوافقوا فى الجواب بابتداء الباء بأن وهو بالبر لا بالإضافة، ووافقوا فى المعنى الذى أراد أن نقروا له من جميع أسمائه بالألف إلا أنه على ما أشار إليه، ومثل لهم بديا.

---

(١) الرب هو الإله المعبود المالك سبحانه، وهو السيد القيم والمدبر. والجمع أرباب وربوب وفى أسماء ا لله الحسنى التى وردت فى حديث الترمذى عن الوليد بن مسلم عن شعيب لم نجد اسم الرب سبحانه. وقد وردت كلمة "رب" صفة لله تعالى فى القرآن العظيم فى أربع وثمانين آية كريمة. وذلك فى مثل قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الفاتحة : ٢ .

(٢) البَرُّ من أسماء ا لله تعالى الحسنى، وقد ورد فى موضع واحد فى القرآن العظيم، وهو قوله تعالى ﴿إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ سورة الطور : ٢٨ .

فالباء ها هنا قالب الألف، والمعنى ما فى القالب لا القالب، فقوله با إنما هو أب. ولكن جعل الباء له، فالباء والألف مندمج فيه.

فإذا قلت با فقد قلت أب. فالمعنى ما فى القلب والمشار إليه، والقالب الاستعمال. ألا ترى إلى حروف الجد إنما ابتدأ أول حروفه بالألف، ثم الباء، فقالوا أب جد الألف منه معنى اسمه الله، والباء معنى قولهم بلى وإلى حروفها الثمانية والعشرون ألف باء تاء.

وإنما جمعوا بين الألف والباء ها هنا، وجعلوا مفتتحه بالألف وتاليه الباء، لأنهم لم يكتفوا بالألف المندمج للعامة عند الاستعمال، فقلبوه، وجعلوا كلامهم ألف مندمج، وجعلوا تاليه الباء كما هو فى الأصل، لأنهم علموا أن المبتغى الألف والباء الاستعمال، فأبرزوا ما كان مندمجاً، وجعلوه مفتتح كلامهم، وجعلوا التالى الباء، فقالوا ألف وباء.

ولو تركوه على ما كان بسط أن يقال لها باء البر وباء بلى، والألف مندمج فيها بينهما، ولكن علموا أنهم إذا قالوا ألف دخل فيه كل اسم، ثم إذا قالوا باءان قد دخل للباء مرة من الألف، ومرة الآن، فهذان باءان ومبتداهما الألف فرخموا[1] إحدى البائين، وهو الذى من الألف مندمج، وتركوا الباء الآخر المبرز على حاله، والباء للألف علامه ورسما على القلوب ليوم الميثاق.

وجوابهم ربهم ﴿بلى﴾ قيل له. فاسم آدم ما لى أراه ألفا، والدال تالية، وليس تالى اسمه الباء، وجواب البشر[2]، قال له اسمان أحدهما اسم الخلقة، والآخر

---

(١) رَخُمَ الصوت، والكلام - رخامة: سهل. فهو رخيم، وهى رخيمة، ورخيم .

(٢) هكذا بالأصل .

اسم الفعل.

أما اسم الفعل فإنه أب البشر ففيه الألف والباء تاليه، وأما اسم الخلقة فهو آدم الألف مبتداه، والدال تاليه، لأنه لم يؤخذ عليه الميثاق يوم الميثاق، ولم يستفهم، وإنما عفي عنه[1] لأنه كان مصور يده، قد شاهد القربة، ونال نور الجلال، وأبدل، فكان الميثاق عرض الأمانة فجعل مبتدأ إسمه الألف علامة لمعنى أسمه ا لله والدال علامة الخلقه، إذ خلق من آديم الأرض.

لأن ا لله كان عالماً به أنه إن خلقه من نور أو ذهب أو من فضه، ثم تاله قربه ربه، وبها اغتر وتجبر باتفاق النور والعز والقربة، وغلبا عليه فأهلكاه.

ألا ترى إلى إبليس كيف تجبر واستكبر بأصل خلقته، وهو نار العزة على آدم في سجوده حتى كفر وكيف مال إلى الدم في الخلقة فقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[2].

فعطف ا لله علينا بنى آدم، إذ خلق أبانا آدم من التراب، وعصمنا به من دواهي[3]

---

(١) إعفاء آدم عليه السلام من الميثاق أمر ذهب إليه بعض المفسرين، لكننا لم نجد دليلاً يؤكد ذلك والتحقيق في هذه المسالة، أن ثمة رأياً بان ا لله تعالى استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن ا لله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه.

ونجد رأياً آخر: ان ا لله تعالى أخذ الميثاق من الذرية في صلب آدم عليه السلام، وميزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. ونجد كذلك من الأحاديث النبوية ما يشير إلى استخراج ذرية آدم من صلبه، ثم أخذ الميثاق عليهم. ولعله من البداهة أن يشهد آدم عليه السلام هذا الميثاق، لكونه مطالباً بالإيمان والتوحيد كذلك وا لله تعالى أعلى وأعلم .

(٢) سورة الأعراف/ الآية ١٢ - سورة ص/ الآية ٧٦ .

(٣) الدواهي: أى ما يصيب الناس من عظيم نوبه أى الدهر. والداهية: الأمر المنكر العظيم .

أنفسنا، وخلصنا من المهالك برأفته - وليس تجرى أسماء الخلق على هذا السبيل الذى وصفنا - إنما ذلك سبيل آخر، وسبيل مجرى الأسماء. أسماء الخلق، ومدارها على نحو آخر، وهو ما يخرج من أفعالهم، وأخلاقهم، وطبائعهم، وتصرفهم من حال إلى حال.

وأما الموضع الذى تجعل تالى الألف فهو سبيل مجرى الكلام، وهو على ما ذكرنا بدياً أن الألف اسم من أسمائه، وأول الأسماء وأشرفها، هو الدال على طبائع الخلق وخالقهم، فالألف ألف المعرفة، واللام علم المعرفة، ولا تكون المعرفة إلا مع علمها إلا فيما وصفنا بدياً فى يوم الميثاق. فإن الله أخرج الألف يومئذ بغير علمها وهو قوله ﴿ألست بربكم﴾.

وكان سبيله مع العلم أن يقول: إن الألف مع اللام، ليكون بروزه مع العلم، ثم يقول: لست بربكم، فإن اللام فى قوله لست ليست بلام علم المعرفة. وإنما هى لام لست فالألف مع اللام معرفة مع العلم كقوله الدار والرجل. فالألف اسم يدلك بما فيه على المسمى، واللام علمها وهو المصدق لها، والنكرة أن يقول رجل ودار ليس فيها معرفة، ولا علم وهو اسم مصمت.

وانما أخرج الله يومئذ الألف وحده من غير علم. لأنه أحب أن يعرفوه، ويقرؤنه غيباً من غير علامة يرون، أو إشارة يبصرون سوى الذى فى الألف. إن فى حشوه من الدلائل والعلائم والبينات والدلالات ما يحققهم على وحدانيته ويدلهم على فردانيته من غير علم المعرفة، فأخرج الألف دالاً بصفاته عليه من غير لام، كالنكرة وليست نكرة إنما هى معرفة بلا علم ، ليكون معرفتهم به ، وإقرارهم به غيباً . كما دعاهم إليه غيباً، فمدحهم ولنى

عليهم،[1] ويباهي بهم خلقه الآخرين فقال ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾[2].

فقال له قائل: فقوله: ﴿هو﴾ آية كلمة هي، وما في حشوها. فبأي أسمع الله يشهد وملائكته، وأولوا العلم. على أنه هو. وقال في سورة الإخلاص قل يا محمد ﴿هو الله أحد﴾[3]، وقال في آخر الحشر ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾[4]، ثم قال في موضع آخر ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله * واستغفر لذنبك﴾[5] ، وقال في آية آخر ﴿لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[6].

قال هيهات هيهات: أن يكون لهذا العلم في أناملك مساغاً. فإن هذا علم جليل دقيق، ولكن سنذكر منه شيئاً لتستدل به على ما نريد قوله: ﴿هو﴾ فإن هو كلمة محشو بصفاته الإلهية، والفردية، والجلال، والملك، والعزة، والقدرة، والسلطان، والجبروت، وهو حرفان هاء وواو.

فالهاء منها الهداية أي الله هو الهادي، والواو الوله لأن الوله لا يجوز، ولا يستحق إلا الله فمستقر جميع الصفات الذاتية، والأسماء الرفيعة في الهاء، والواصف لها، والدليل بما فيها للخلق، والمشير إليها، والمعبر عنها، والمؤدي معناها بكهنه الألف.

---

(١) ثني هنا قد يراد بها العطف على الشيء، أو تعدى بالألف (أثنى) فتكون من الثناء أي الوصف بالخير .

(٢) سورة البقرة / الآية ١-٣ .

(٣) سورة الإخلاص / الآية ١ .

(٤) سورة الحشر / الآية ٢٢ .

(٥) سورة محمد / الآية ١٩ .

(٦) سورة الأنبياء / الآية ٢٥ .

ونص الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ .

ألا ترى أنه لما قال ﴿قل هو﴾ لم يدل على صفاته. حتى قال ا لله، فأبرز الألف ثم قال: ﴿أحد﴾ ثم قال: ﴿ا لله﴾ فأبرز الألف، ثم قال: ﴿الصمد﴾ فأبرز الألفات قبل الصفات .

أولا ترى إلى قوله ﴿هو ا لله الذى لا إله إلا هو﴾[*] فسكت، ثم قال ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾[*]، ثم قال ﴿هو ا لله الخالق البارئ﴾[*]، لم يكتف بهو في تلك المواضع حتى ذكر بعده ا لله.

ثم وصف فهو كلمة لا ينطق بما فيها، ولا يدل، ولا يشير ولا يصف، وهى محشو بها، والألف المعبر عنها بما فيها، وهى فى الكتابة حرف. فالألف فيه مندمجة لا تظهر إلا عند القراءة والتهجى، وأما الواو الذى يتلوه فهو اسم له، والخلق إليه فى المقادير، ووصف نفسه وصف بهو لأن فيه علم الغيب، ودعاهم إليه به فقال ﴿شهد ا لله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾[1]، ولما دعاهم إليه يوم الميثاق دعاهم إلى ﴿أنا﴾ فقال ﴿لا إله إلا أنا فاعبدونى﴾[2] إقرار أن يعبدوه فى الجملة، ولما دعاهم إلى عبادته ودعائه إلى إسمه ا لله فقال ﴿فاعلم أنه لا إله إلا ا لله واستغفر لذنبك﴾[3]، وقال﴿لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾[4].

فقوله: ﴿هو﴾ اسم لا ينطق ولا يدل وقوله: ﴿أنا﴾ اسم مضمر فيه اسمه ا لله، وقوله: ﴿ا لله﴾ اسم واضح دال واصف .

(*) سورة الحشر، الآيات/ ٢٢-٢٤ .

(١) آل عمران /الآية ١٨ .

(٢) سورة طه / الآية ١٤ .

(٣) سورة محمد / الآية ١٩ .

(٤) سورة طه / الآية ١٤ .

تفسير اسم إبليس:

قيل له فاسم إبليس أراه ألفاً، وتاليه الباء. ما معناه؟

قال: ذاك ليس من هذا المعنى فى شيء. ذاك اسم سماه الله به يوم أبى عليه بالسجود لأدم، أخرجه من فعله، وأما اسمه الذى هو اسمه فهو عزازيل فهو اسم الخلقة في البدء، وذلك اسم سمّاه الله به من فعله الذى بدا منه[1] .

فأما تفسير اسمه عزازيل. فإن العزاز العبد، والإيل الدب، والعزز مأخوذ من لعزة، وذلك أنه خلق من نار العزّة، والعزّة بـا لله خمسة أحرف[2] ، والعزاز أربعة حرف، وكل حرف منها يدل على فعله إذ كانت الأسماء تدل على الأفعال، وهو لعين والزاى والألف والزاى الآخر.

فمن العز خرج علوه، ومن الزاى خرج زهوه، ومن الألف خرج إباؤه استكباره، وأما الزاى الأخرى فهو وكذا الكلام، وغضبه الإتمام الغالب في العربية كقوله الرحمان وسبحان، وإنما المتبغى منه الرحم والسبح وإما أن منهما. فهو قالب على مجرى فعلان، فهو هذا تفسير اسمه عزازيل.

وأما تفسير اسمه إبليس. فإنه خمسة أحرف، كل حرف منها يدل على فعله لذى هو فيه، ويبدأ منه، وهو الألف والباء واللام والياء والسين. فأما الألف فإنه ف الإباء، والاستكبار ، إذ كان إباؤه من الاستكبار. كما قال: ﴿ آبى واستكبر

---

١) قال محمد بن إسحاق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنه قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جناً .

٢) كلمة (خمسة) غير موجودة في المخطوطة، حيث جاء الكلام هكذا (والعزة بـا لله احرف) ولعله يقصد خمسة أحرف لكون السياق يقتضى ذلك .

وكان من الكافرين﴾[١]، فإباؤه من الاستكبار، واستكباره من الكفر، وأما الباء فإنها من الباء حيث برئ من ربه. بترك السجود، وأما اللام. فإنه للألم، وأما الياء فإنه ياءلم يكن. يقول لم يكن، وأما السين فإنه سين السجود، فإذا اجتمعت الحروف كلها أدى المعنى على أنه أبى على ربه، واستكبر. ولم يكن من الساجدين لأدم مع الملائكة، قال ا لله تعالى ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجين﴾[٢].

تفسير اسم إبراهيم عليه السلام:

قيل له: فاسم إبراهيم - عليه السلام - أخرج أيضاً مبتداه بالألف ثم الباء، اشرح لنا منه شيئاً.

قال: وأما تفسير اسم إبراهيم عليه السلام. فإن كل حرف من اسمه دليل على قوله الذى كان مندمجاً فيه منكمناً كالنار فى الحديدة. وعلى ما خرج منه يوم الابتلاء والاختيار، فاما الألف فللإبتلاء حيث قال ا لله له أسلم قال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾[٣] ، فشهد ا لله له بذلك ولأنه استحق فقال: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾[٤] .

ويحتمل أن يكون ألف الإخلاص، إذ شهد له ربه بل الإخلاص إنه كان مخلصاً.

---

(١) سورة البقرة / الآية ٣٤ .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١١ .

ونص الآية الكريمة ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ .

(٣) سورة البقرة / الآية ١٢١ .

(٤) سورة الصافات / الآية ١٠٣ .

ويحتمل أن يكون على ما ذكرنا جدياً من أن الألف اسم الله، والباء علامة جوابهم بلى، وحل حسن. وأما الباء على التفسير الذي ذكرنا: أن الألف ألف الإسلام فإنه باء البراء، حيث قال ﴿إني برئ مما تشركون﴾[1] ، حيث قال ﴿إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله﴾[2] .

واما الراء فإنه الرؤيا حيث قال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾[3] . وأما الهاء فإنه هاء الهم، وأما الياء فإنه ياء التصديق فإذا جمعت بين الحروف صار كلاماً، وأدى المعنى المبتغى منه في القول: أنه أسلم لربه فيما رأى من الرؤيا، وهمَّ أن يصدق رؤياه بذبحه أبنه.

فاكتفى الله بهمه، وعفا عنه، ورضى عنه، وفداه بكبش[4] ، وأما الميم التي تعقبه فإنها ميم ﴿مه﴾ حيث هم بذبحه قال الله له مه، فسماه الله بذلك الإسم، ولم يظهر بعد منه هذه الأفعال لعلمه به، وبما يبدو منه، بعد ذلك.

تفسير اسم فرعون:

قيل له: اسم فرعون أحببنا أن تشرح لنا منه شيئاً، ليكون لنا فائدة.

---

(١) سورة الأنعام / الآية ٧٨ .

(٢) سورة الممتحنة / الآية ٤ .

(٣) سورة الصافات / الآية ١٠٢ .

(٤) يشير الشيخ رحمه الله إلى قوله تعالى في ختام ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ آية ١١٠. أى هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً. كما قال تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً ﴾ الطلاق ٢ ، ٣.

قال : أما تفسير اسم فرعون[1] فإن له اسمين؛ أحدهما الوليد، والآخر فرعون، وكلٌ يدل على فعله، وسوء سيرته الذى منه بدأ.

فأما الوليد فإنه أربعة أحرف، واو ولام وياء ودال؛ فالواو واو الويل، واللام لام اللعنة، والياء ياء يوم، والدال دال الدّين؛ فإذا اجتمعت بينها أدى المعنى إلى أن عليه الويل واللعن يوم الدين.

فهذا اسم قد سماه الله به، وحشوه ما يصل إليه فى الآخرة مندمج فيه من الويل واللعنة، وأما الاسم الآخر وهو فرعون؛ فهو خمسة أحرف وهم الفاء والراء والعين والواو والنون، فالفاء الفراق والتفريق، والراء الركوب والركون، والعين عين العلو، والواو واو الويل، والنون نون النار؛ فإذا جمعت بين حروفه الخمسة أدى المعنى إلى أنه حيث ملك فارق دينه، وفرق بين بنى إسرائيل، وركن إلى الأرض، وركب هواه، وعلا على ربه كما قال الله تعالى: ﴿إن فرعون علا فى الأرض﴾[2].

وكما قال: ﴿وإن فرعون لعال فى الأرض﴾[3] .

وكما قال بنفسه وادعى الربوبية ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[4] فهذا ما بدا منه فى الدنيا، وأما الواو والنون فله الويل والنار يوم القيامة فى خزى وهوان أبد الآبدين[5] .

---

(١) الفرعون أصله: فَرْعَنَ أى تجبر وتكبر. وتفرعن فلان: تجبر وطغى.
والفرعون : لقب ملك مصر فى التاريخ القديم. ولقب كل عاتٍ . والجمع فراعنة.

(٢) سورة القصص: آية ٤ .

(٣) سورة يونس: آية ٨٣.

(٤) سورة الذارعات، آية ٢٤.

(٥) هذا المعنى موجود فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ ٤٠ -٤٢ القصص. ومنها قوله تعالى : ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ غافر ٤٦.

تفسير لا إله إلا ا لله:

قيل له: فتفسير لا إله إلا ا لله ورحمته. إن وفق ا لله لك أن تذكر لنا منه شيئاً شكرنا ا لله لك ودعونا لك بالسداد والرشد.

قال: فأما تفسير لا إله إلا ا لله. فإنها في الحروف عشرة أحرف لا، إن، وها، إن، وثلاث ألفات، وثلاث لا مات، فأما إله فهو ثلاثة أحرف، والإسم منها في الألف، وهو الإسم المنحول المستعار للاهتنام مأخوذ من إسم ربنا ا لله اختلاقاً واستراقاً.

وأما ا لله فهو أربعة أحرف، والإسم منها في الألف، والألفان اسمان أحدهما مخفي بالتحقيق، وهو ا لله إسم ربنا، والآخر مستعار مسترق منحول مختلف، والهاء أن علماً أهويته إلى المنسوب إليه الألف، وهو الإسم في قوله ﴿إله﴾ وقوله: ﴿ا لله﴾.

وأحدهما التحقيق، والآخر مستعار كما ذكرنا. فإذا قلت: لا إله فلا النافي لألف الإله لأنه الإسم المستعار فيه وهو اسم الصنم. وإذا قلت إلا ا لله. فألف إلا هو المثبت لألف ا لله. لأن الإسم المستحق فيه، وهو إسم ربنا جل وعز، وأمالا فهو عماد الألف ها هنا، لأن الألف لا يمكن عبارته باللسان دون اللام، إذ هو علمه، وكذلك اللام لا يمكن استعماله إلا مع الألف، وإن استعمل دون الألف ذهب المعنى وتلاشى المراد وبطل المبتغى وصار كلاماً آخر يؤدى إلى معنى آخر.

ولأن الكلام التام عند العرب لا يكون أقل من ثلاثة أحرف إلا في حروف

قليلة، منها قوله الله عز وجل "كن"[١] وهو حرفان خرج منهما الملك والملكوت، وشأن الدارين، وأمر الآخرة، وذلك تقدير العزيز العليم أخرجه من خزائن الربوبية فقوله "كن" إنما في الأصل حرف، والنون قائمته. فلو قال ربنا لما شاء أن قال له ك من غير نون كان ما شاء، ولكن أحبّ أن يخرجه مع القائمة، ليفهم خلقه كلامه، ومعناه في تنزيله في شرائعهم على لغاتهم وألفاظهم، وليكون أيسر على ألسنتهم وأفهم المسامع على المراد[٢].

تفسير بعض رؤوس السور القرآنية :

ألا ترى إلى بعض رؤوس السور المبهمة كيف تاه الناس فيها، وكيف اختلفوا في تفسيرها، وهي الطواسين والحواميم[٣] ، وألف لام ميمات وغيرها، وهو ثلاثة أحرف وأكثر.

فلو أنهم تاهوا فيها إذا هم أتوه في قوله طس، ويس، ونون، وكل حرف منها محشو بمعان وصفات وإنما هو بعض من كلام، كما قالوا إن الم، الألف منها

---

(١) كلمة "كن" وردت في إحدى عشرة آية كريمة، منها ثمانية مواضع وردت إشارة لمشيئة الله في الخلق، ومن ذلك قوله تعالى (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) البقرة ١١٧ .
﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ النحل : ٤٠ .

(٢) لعل الشيخ رحمه الله يقصد بالمسامع المستمع الآن ثمة فرقاً بين السماع والإستماع، فالسماع هو تلقي للكلام دون تفاعل جيد، وإنصات وتركيز، والمتلقي عندئذ يقال له السامع. أما الإستماع فهو جهد مقصود يبذله المتلقي بإنصات وتركيز، مما يفضي إلى التفاعل الجيد مع الكلام، ونقرأ في هذا قوله تعالى ﴿وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ الأعراف : ٢٠٤ .

(٣) الطواسين هي السور الكريمة الثلاث (الشعراء - النمل - القصص) حيث إن بداياتها بالترتيب: طسم - طس - طسم . والحواميم هي السور الكريمة التي تبدأ بحم، وما يزاد عليها، وهي سور (غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف) .

إسم ربنا ا لله، واللام إسمه اللطيف، والميم إسمه الملك، فانظر كم حرف اللطيف وكم حرف الملك، وكم حرف ا لله، وكم حرف الألف من ا لله، وكم حرف اللام من اللطيف، وكم حرف الميم من الملك .

وقد قال بعض المفسرين إن الألف آلاء ا لله، وأن اللام لطف ا لله، وأن الميم ملك، ويقال أيضاً الألف إسم ا لله، وأن اللام إسم جبرائيل وأن الميم إسم محمد صلى ا لله عليه وسلم.

فقوله "كن" هو حرف كقوله "نون" ، وقوله "ق"، والنون قائمته ليكون للسامع أفهم، وللقائل[1] أيسر، واشبع في الكلام، وأتم في الغالب، فلا كلمة نفي. وإلا كلمة إثبات.

ولا يكون إثبات إلا بالألف ويكون النفي بغير الألف لأن الألف في لا مضمر مندمج فيه.

فإذا قلت لا علمت أنه لام وألف، وإذا قلت إلا علمت أنه لام وألفان أحدهما قبل لا والآخر بعد لا.

ولا في الكتابة حرف له فرعان من أصل واحد، وفي الكلام لا يظهر إلا بفتحة اللام ومدته فاكتفى ا لله بنفي كل معبود دونه بحرف وهو لا، ولأنه وإن كان حرفاً واحداً في الكتابة فإنه حرفان في الأصل لام وألف، والفرعان اللذان فيه يدلان على ذلك، وخفي على الناس معرفة ذلك، والألف أشرف أسمائه وأغرّها[2]

---

(١) أي المتدبر والمتأمل في الأمور .

(٢) من الغُرة، وهي مقدمة الشي، وطلعته وغرة الرجل: وجهه، والجمع : غُرر والأغر: ذو الغُرّة . يقال: يوم أغر، وليلة غراء .

فاكتفى فى النفى وإن كان حرفاً مضمراً فإن له سلطانا ينفى وحده إسم كل معبود يسموا باسم الله اختلافاً واستراقاً وابتهالاً واستعارة.

ولم يكتفى به عند الإثبات حتى أبرز ألفاً سوى الألف الذى فى لا، وترك الألف الذى فى لا على، حاله تأكيداً وتثبيتاً، فقال عند النفى لا حرف واحد وهو اللام، وفيه الألف المضمر، وقال عند الإثبات إلا فترك لا على حاله، وأبرز ألفاً آخر قبله، ليكون حرفان ظاهران ألف ولام سوى الألف الذى فى لا، لئلا يكون إثباته النفى فى قوله ليميز الإثبات من النفى بالألف الذى أبرز قبل لا.

تفسير لا إله إلا الله (كلمة التوحيد):

وأما ترجمة لا إله إلا الله. فليس على ما ذهب إليه العامة، ولا على ما فسّره المفسرون، ولا على ما ترجمه المترجمون، وقد غلطوا فى ترجمته وتفسيره، وقصدوا غير سبيله، وشرحوا الظاهر، وكتموا الباطن، وما فى حشوه، وذلك أنهم ترجموا قوله: ﴿لا﴾ بالأعجمية ﴿نيست﴾ وهو خطأ بين، وكيف يشبه لا بليس، أم كيف يشبه بالأعجمية نيست؟.

ولو كان كما ذهب إليه الناس من قولهم لا إله ﴿نيست خداى﴾ لكان ليس إلهاً على قياس قولهم، ولكنهم بالخطأ يتكلمون، وبالمحال ترجموه، وإلههم ينفون لا إلاهه.

وسنبين لك خطأ قولهم ومحال ترجمتهم، ويكون على علم منه إن شاء الله، وبالله التوفيق[1].

---

(١) معنى (لا إله إلا الله) أى لا معبود بحق إلا الله، وهى تنفى الإلهية بحق عن غير الله سبحانه، وتثبتها بالحق لله وحده، كما قال تعالى فى سورة الحج ﴿ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ آية/٦٢ وشروطها ثمانية جمعها بعض أهل العلم فى بيتين، هما :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع　　　محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما　　　سوى الإله من الأشياء قد ألها

إعلم أن ﴿لا﴾ كلمة نفي وتنزيه، أبرزها الجليل، لتنفي بها كل معبود دونه عن أن يكون مثله، وتنزه بها ربك عن أن يكون له شبيه أو يكون له في ملكه شريك أو ولد، كما زعم الكفار والمشركون، وكفرة أهل الكتاب.

والنفي والتنزيه هو التسبيح والتبرئة، وأماّ ليس فهي كلمة جحود وإنكار، وليس للإنكار والجحود هنا معنى ولا موضع إنما ها هنا موضع النفي والتبرئة،وهما التنزيه والتسبيح.

وقد دعا الله الخلق إليهما، وأمر لا بالجحود والإنكار، وذلك أن القوم لم يكونوا ينكرون ويجحدون أن ليس في السماء إله، ولكنهم يزعمون أن له ولداً يشبهه وهو عيسى، وأن له شريكاً في ملكه، وهو هؤلاء الأصنام[1] ، وأنه قد اتخذ صاحبة وهي مريم، وأنه اصطفى البنات على البنين وهم الملائكة، وإن الشمس والقمر والشجر والكواكب له شركاء في ملكه.

وقال: قال الله تعالى في كتابه، يحكي عن قولهم: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[2] فدعا الله خلقه إلى أن ينفوا عنه مقالاتهم الرجسة[3] ، وينزهوه عن ذلك كله، وينفوا الآلهة التي اتخذوها من دون الله، ويؤحدوه بوحدانيته في ربوبيته.

---

(١) يقصد : هذه الأصنام. فهؤلاء ترد مع الفاعل، والله تعالى أعلى وأعلم .

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ الأنبياء ٥٢ .

(٢) سورة لقمان / الآية ٢٥ – سورة الزمر / الآية ٣٨ .

(٣) رجس رجساً، ورجاسة: أتى رجساً فهو رجس. وهي رجسة . ورجس الشئ رجاسة: قذر .

فإذا قال لا إله، وزعم أن ترجمته ليـس إلـه. فإنما أنكـر الإلـه المسـتحق، وبـه جحد، وهو الرب تبارك وتعالى اسمه لأنه المستعار وهو الصنم، لـن المسـتعار للصنـم من اسم ربنا وهو الإله لا يدخل في قوله ﴿ليس﴾، إنما يدخل الإسم المستحق وهـو إسم الرب.

لأن الجحود إنما يقع على المستحق نضالاً[١] على المستعار المنحول، وإنما يقـع النفي على المستعار أو المنحول[٢].

ألا ترى أنك إذا قلت ليس إله فقد جحدت إسـم الإلـه الـذى هـو إلـه، وإذا قلت لا إله فقد نفيت إسم الآله المستعار المنحول، لأن ا لله جـل وعـز دعـاك إلى أن توحده وتنفي ما دونه، فما يسمي باسمه ا لله.

وزعموا أنه إله دونه، وتنزهه وتنزيهه عن أن يكون دونه أحداً ومعه في ملكه أحد، فاطلق لسانك على أن يقول لا إله في ملكه أحد، وهو بالأعجميـة انـه ﴿خـد المست﴾ هذا الذى تزعموه أنه إله دون إلهي، وقد سميتموه باسم ا لله، ثم تقـول: إلا ا لله وبالأعجمية، ﴿خذى خذ﴾ أى الذى له اسم الإله المستحق.

فـإذا قلـت ذلـك فقـد أجبتهـم بـه، ورددت عليهـم قولـه، ومـا سموا بـه أصنامهم، ونفيت اسم إلهك عنه ونزهت ربك عن كل ما أشـركوا فيـه، وبريته عن أن يكون في ملكه من الشبهة وأشـبه ملكـاً فـرداً، ووحدتـه أحـداً صمـداً، وسبحته بما هو له أهل، وأصبـت معنـى ا لله بقولـك فـي الـرد عليهـم مقـالاتهم

---

(١) ناضل عنه مناضلة. ونضالاً وتنضـالاً : حامي ودافـع وتكلـم عنـه بعذره . ونضلـه نضـلاً: سبقه، وغلبه في الرمي .

(٢) انتحل الشي:ادعاه لنفسه وهو لغيره .

الرجسة، ونافحت[1] عن ربك وانتقمت منهم نقمة ربك ولاشت أقوالهم[2]، وأبطلت حججهم، ودمرت عليهم تدميراً، ونصرت اسم ربك، وقدسته من أقذارهم، وفككت أسرته. وإذا قلت: لا وزعمت أن ترجمته ليس لم تكن لهم في قولك جواباً، وتلاشى كلامك، وبطل المعنى وصار النفي جحوداً، ووقع الجحود موضعه على التحقيق، فجحدت اسم ربك المستحق وهو الله.

وإن كان الضمير على غير ذلك، لأن المعنى في كلامك يؤدى ههنا إلى خلاف ما في الضمير، لأن معناك من قولك هذا على النفى وإثبات الرب، وقولك على لسانك يؤدى نفي اسم الله لا اسم الصنم، وكيف يغني عنك.

ولو أنك تقول: هات كوزاً من الماء، وفي ضميرك معنى الخبز. وإن أردت أن يظهر لك قبح ملك الترجمة وفحشتها، ورشد ترجمته وحسنه، وإصابة المعنى في التميز بينهما مثلته لك لتدركه[3].

فإن هذا حرف لطيف لا يدرك ما قلنا ولا يفهمه إلا من وفق للنظر، وكان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أرأيت لو أن لك فرساً ولرجل حمار. قد سماه فرساً، أتاك فقال: هذا فرس كفراسك، ما كنت تقول له إن قلت ليس فرس نفيت فرسك، وجحدت أن يكون فرسك فرساً لا حماراً، لأنه فرسه حمار ومتسمي باسم فرسك، ولو قلت ليس بحمار كذبت، لأنه حمار وليس بفرس .

---

(١) نافح عنه: دافع، ونافح فلاناً كافحه .

(٢) تلاشى الشيء: فنى .

(٣) أي ضربت لك المثل، تقريباً للفهم والإفهام .

قيل له: أشرح لنا كيف سبله؟ قال: إن قلت ليس فرس إلا الفرس لم يكن كلاماً، لأنك قد نفيت الفرس الذى هوالفرس، وجحدته قبل أن تثبته، وقبل أن تنفي فرسه أنه ليس بفرس.

ألا ترى أنك حين قلت ليس فرساً نفيت فرسك، لأنه هو الفرس، ولم تقع كلمتك ونفيك على الحمار، لأنك قلت ليس فرس، ولم يقل ليس حمار، وإن قلت ليس حمار لم يكن أيضاً كلاماً لأنك كذبت في قولك ليس حمار، وإنما هو حمار.

فإذا قلت لا فرس. فقد رددت عليه ما جاء به من الإسم المستعار من فرسك على حماره، ثم قلت إلا الفرس فأثبت اسم فرسك المستحق على فرسك الذىهو اسمه.

وكقول رجل للفلس: هـذا دينار. فـاذا قلت ليس دينار نفيت للدينار لا الفلس، لأن الفلس فلس وإن سمي ديناراً، وإذا قلت ليس فلس لم يكن كلاماً لأنه فلس، وإن قلت لا دينار نفيت الفلس المسمى بدينار، فإذا قلت إلا الدينار أثبت الدينار الذى هو دينار .

تفسير قوله تعالى ﴿ا لله نور السموات والأرض﴾:

تفسير قوله : ﴿ا لله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾[1]

قال رحمه ا لله: قد كثرت التفاسير لهذه الآية من وجوه شتى كل حسن، ولكن التفسير ما فسره الحكماء من الحكمة العليا التى خرجت من خزائن المعرفة ونطقت بها ألسن أهل العقول من بحور الإلهام حتى سالت منها أودية ملأت الأفق .

---

(١) ، (٢) سورة النور / الآية ٣٥ .

أما قوله عز وجل ﴿الله نور السموات والأرض﴾[٢]، فإن الأنوار كلها تسعة، وهن كلهن من نور الله.

فأما النور الأول فنور الشمس ولباسه الضوء.

وأما النور الثاني فنور القمر وليس عليه لباس، وإنما معناها في ذلك لباس الباطن لا لباس الظاهر، فأما لباس الظاهر فإن لكل واحد منهما لباس، فلباس الشمس من العرض، ولباس القمر من الكرسي، هذا في المجاز.

وفي التحقيق لا يقال لما ذكرنا لباس إنما ذاك كسوة، والكسوة سوى اللباس، فالكسوة ما يواري العورة واللباس ما يلبس فوق الثياب، ذلك النفس وهذا للعين، وشتان بما بينهما. ولكتة أخرى، أن الكسوة بحاجة النفس واللباس فرح القلب، وفيه ما لا يمكن الفحص عنه، ولو قصدت ذلك طال الكتاب .

رجعنا الى ما كنا فيه.

واما النور الثالث فنور الكواكب، وأما النور الرابع فنور النهار، وأما النور الخامس فنور البرق، وأما النور السادس فنور النار، وأما النور السابع فنور العين، وأما النور الثامن فنور الجواهر، وأما النور التاسع فهو رأس الأنوار وملكها.

وذلك أنه خرج من الوحدانية وعليه لباس الربوبية، يدل على الألوهية، ويشير إلى الفردية، وذلك قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه فهو على نور المعرفة ويتلوه شاهد منه﴾[١].

---

(١) الآية الكريمة في سورة هود / الآية ١٧ وليس بها جملة (فهو على نور المعرفة)، وربما ذكرها الشيخ رحمه الله تفسيراً لكلمة (بينة)، ونص الآية الكريمة هو ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلاتك في مرية منه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .

فهو نور هذه الشواهد والعلائم الذى معه يدل على الله ويشير إليه، ويؤدى عنه بالصفات الذات، والأسماء الدالات، وإنما صاراً بهى الأنوار الظاهر، وهذا نور الباطن، فبنور الظاهر ترى الظاهر، وبنور الباطن ترى الباطن[1] لو أنك أردت أن تنظر إلى ما غالب عنك بنور بصرك لم يطق ذلك أبداً،ولكنه أحرى أن بنور الباطن ترى الظاهر والباطن كلاهما، وبنور الظاهر لا يطق الرؤية إلا للظاهر.

فجميع الأنوار التى ذكرنا بدت من ملكه وقدرته، والنور الأشرف هو نور المعرفة، إنما بدا من الوحدانية، فتلك دالة على الملك والملكوت، لأنها بدت منها، ومن نورانيته خرجت هذه الأنوار كلها، فوصف نورانيته الذى بدا من الملك لأهل السموات وأهل الأرض. ثم عطف على النور الأبهى والأشرف، وهو نور المعرفة الذى بدا من الوحدانية، فذكره وضرب له مثلاً ليفهمه خلقه، وليعرفوا كرامته التى أكرمهم الله بها من بين خلقه وليشكروه على صنعه بهم، ونظره لهم وعطفه عليهم فى سابق علمه بهم، حيث لا أرض، ولا سماء، ولا عرض، ولا كرسى، ولا قدر،

---

(1) الأنوار التى يمكن استنباطها من قوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾ توسع فيها الشيخ رحمه الله على عادته فى هذه المخطوطة، واستطرد رحمه الله فى بيان النور الظاهر، والنور الباطن وهذا علم يناسب خصوص الخصوص من الناس .

واذا تناولنا ظاهر الآية الكريمة، محاولين فهم كلمة (نور) لوجدنا ابن عباس رضى الله عنه يفسرها: بما فى السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، ويفسرها أبى بن كعب رضى الله عنه بأن النور هو المؤمن الذى جعل الله الإيمان والقرآن فى صدره . وبعامة فبنوره سبحانه أضاءت السموات والأرض وكان من مناجاته صلى الله عليه وسلم كما ورد فى الصحيحين عن ابن عباس (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن) . وكذا كان من دعائه يوم آذاه أهل الطائف (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والأخرة .. الحديث).

ولا قضاء، ولا مقادير، ولا شي.

ونظر إليهم في هويته وفرديته وديموميته وقدمه، فاجتباهم وهداهم واختارهم لنفسه، وجعل أسماءهم عنده في سابق علمه ليوم خروجهم ودينهم بين يديه، وعينه المكنون ينظر اليهم وكنفه بالمحبة عليهم، فيباهي بهم خلقه وخليقته، حتى يمجدونه ويثبتونه ويركعونه ويسجدون له، وحيث يسلون[1] سيوفهم النورانية من أغمادها[2] مموهه[3] بماء المحبة، محددة بالمحبة منه، مثقلة بالإخلاص فيهرونها بالشوق بين يدى الجليل على بساط الفرح، فتلمع سيوفهم وتشرق فيها أنوار، فتحرق الحجب هيبته ويحر[4] الملائكة سلطانه، وتحرق الشرك والكفر نيرانه، وترتعد من الشوق إلى صاحبها عرش الجليل وتينع وتزهر جنان الفراديس من طيبه، فياها من منزلة، ويا لها من شرف، لو كنت تعقل .

رجعنا إلى ما كنا فيه، فقال: مثل نوره كمشكاة[5] فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى توقد من شجرة مباركة، يقول: يوقد القنديل من دهن شجرة مباركة، وهى الزيتونة لا شرقية ولا غربية.

يقول ليست الشجرة بشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضى، يقول: يضئ القنديل بغير نار ولو لم تمسسه نار، يقول: يضئ ضياء لو لم يكن نار جاز نور، يقول: هو نور يعنى الزيتون على نور يقول على الزجاجة، ﴿يهدى الله لنوره من

---

(١) سَلَّه : سحبه .

(٢) أغمد السيف: أدخله في غمده .

(٣) مموهة : مطلية . والشي المموه : المطلي بذهب أو فضة وليس جوهره منهما .

(٤) حَرَّ الماء والهواء وغيرهما حرارة: سخن – فهو حار. وحَرَّ الشي حراً: سخنه . واحَرَّ: صار حاراً .

(٥) المشكاة: قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب: موضع الفتيلة من القنديل .

يشاء﴾[١] .

وأما المثل فإنه يقول: كان مثاله مشكاة، وهي المشكاة وفيها قنديل معلق قد صُب فيه ماء، وفوقه دهن الزيت إلى أن جاوز البارق، وصارت الفتيلة فيها مصبوغة، والقنديل يضيء أهل البيت بضوء الدهن الذى فيه، وهو دهن الزيتون غير نار كأنه كوكب درى فى شدة ضوئه ودريته.

وأما تفسير مثل القنديل فإن المشكاة الكوة والبيت الصدر، والمصباح السراج، والمصباح الآخر الفتيلة، والزجاجة بارق القنديل، والزجاجة الأخرى نفس القنديل ووقوده من دهن زيت لا شرقية ولا غربية بلا نار.

وأما معنى مثل القنديل فإن المشكاة وهى الكوة هى الفم، والبيت الذى فيه الكوة هو الصدر، والمصباح المنسوب إلى السراج الإقرار، والمصباح الآخر المنسوب إلى الفتيلة اللسان، والزجاجة المنسوبة إلى البارق الى الخلق، والزجاجة المنسوبة إلى نفس القنديل القلب.

وأما الوقود الذى ذُكر أنه من الزيتون هو المعرفة، وأما الذى تحت الزمن فهو ماء الرحمة، وأما تفسير القلب الذى سماه بالزجاجة من بين جميع الأشياء[٢] ، فإنما شبه القلب بالزجاجة. لأن الزجاجة جوهره أصلها من النور واستعمالها بالنور، وهى النار، فلما اجتمعا ودخل سلطان النار فيها ازدادت نوراً وضياء ويبست من حراريتهما حرارة النار وحرارتها، فضعفت ورخوت.

---

(١) سورة النور / الآية ٣٥ .

(٢) تفسير الزجاجة بالقلب فى قوله تعالى (المصباح فى زجاجة) أمر ذهب إليه بعض المفسرين، قال أبى ابن كعب وغيره وهى نظير قلب المؤمن .

فمهما أص بها يد اللامس انكسرت من غلبة سلطان النور وحرارته عليها، لذلك قال حكيم من الحكماء: إنما شبه الله تعالى قلب المؤمن بالزجاجة، لأنها سريعة الانكسار بطيئة الانجبار إذا انكسرت لا تقتل الجر، ولا تصلح حتى تصيبها النار، فسماه لضعفه وسرعة انكساره وشدة نوره وضوئه بالزجاجة التى وصف.

وأما تفسير القلب حيث شبه بنوره وضوئه ودريته بغير نار بالكواكب من بين الأشياء النورانية، فإنما شبهه بالكوكب، لأن الكوكب أصله من النور، ولباسه النور، وهو معلق من السماء، يضئ لأهل الأرض من مسيرة خمسمائة عام، وأكثر بغير نار، بل بالنور الذى هو جوهره، والنور الذى هو لباسه، فشبه قلب المؤمن بضوئه ونوره[1]،وضوء المعرفة التى فيه من الأرض لأهل السماء بغير نار، فقال ﴿كأنها كوكب درى﴾[2].

وكما أن القنديل معلق من الهواء بحبل، والكوكب معلق من السماء. كذلك القلب معلق من السماء، وسماؤه العرش، وحبله الإيمان، وهو الإقرار به.

وأما تفسير قوله ﴿توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾[2]، قال: أما شجرة الزيتون فإن أصلها ومنبتها من شجرة

---

(١) نورانيه المؤمن التى يؤكد عليها الشيخ رحمه الله لما ما يدعمها من أدلة، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله خلق خلقه فى ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره يومئذ فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطاه ضل، فلذلك أقول، جف القلم على علم الله عز وجل) ويقول أبى بن كعب رضى الله عنه: (المؤمن يتقلب فى خمسة أنوار: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة) .

(٢) سورة النور / الآية ٣٥ .

طوبى التى هى فى الجنة، أهداها الله تعالى لآدم عليه السلام يوم تاب عليه وزوده بها، وسماها باسم سوى طوبى وهو الزيتون.

ولكن بلطفه وحكمته غير حروفها وأبدل كل حرف منها بحرف آخر، وختمها بحرف زائد ليس فيها، وهى النور من الزيتون.

وذلك أن طوبى أربعة أحرف الطاء والواو والباء والياء، وزيتون أربعة أحرف أيضاً الزاى والياء والتاء وواو، وزيادة حرف فى آخره وهو النور.

فأما تفسير الزيتونة فإنها فى الحروف خمسة أحرف كما ذكرنا، وهى الزاى والياء والتاء والواو والنون، وكل حرف منه يدل على فعله وما فى حشوه، فالزاى زاى الزاد، والياء ياء اليوم، والتاء تاء التوبة، والواو واو السمة، حيث وسّم الله شجرة طوبى حين غرسها، ولها قصة نذكرها فى بابها إن شاء الله، والنون نون النور.

فإذا اجمعت بين حروفها المتفرقة دلك على أن الله عز وجل زود آدم بها يوم تاب عليه، والنون علامة النور فى الزيتونة، ودلالة على أن فيها نوراً يضى القنديل بنوره من غير نار، كما قال: ﴿يكاد زيتها يضى ولو لم تمسسه نار﴾ ها هنا تم الكلام، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿نور على نور﴾[1]، أى لأن الزيتون نور على نور الزجاجة وهى القلب والزيتون المعرفة.

يقول: كما أن دهن القنديل من شجرة الزيتونة كذلك دهن القلب من شجرة التوحيد، وشجرة التوحيد هى التى ذكرها الله فى القرآن ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾[2]

---

(١) سورة النور / الآية ٣٥ .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٢٤ .

وهي التوحيد أصلها ثابت في قلب المؤمن وفرعها في السماء وهو العرش، تؤتي أكلها يعني ثمرها كل حين، كل ساعة بإذن ربها، لا ثمر إلا بأمر ربها.

وأما تفسير: ﴿مباركة﴾ فإن قصتها في ذكر قصة طوبى وسنذكره في موضعه إن شاء الله مع سمتها التي ذكرنا.

وأما تفسير ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ فذلك أن الله عز وجل حيث أهداها إلى آدم يوم أهداها غرسها في تلة[1] من الأرض ولم يكن يومئذ حيطان، توارى عنها الشمس ولا ظل، وكانت الدنيا فيافي وبراري، أهدى إليه حبة من حبات ثمر شجر طوبى حين تاب عليه.

وقيل له: يا آدم إن فيك داعية تدعوك إلى جوهرها ولا بدلك من اتباعها، وهي جوهرة التراب، وهي التي دعتك الى أن أخرجتك من الجنة، وأسكنتك الأرض، وهي كما دعتك من الجنة إلى أن أخرجتك من جواري، وأسكنتك جوهرها وهي الأرض، فهي لا تدعك أن ترجع إلى جواري وداري، لأنها تحب جوهرتها وتطمئن إليها، وهي الأرض وتنسيك الآخرة.

فرحمتك يا آدم، وزودتك هذه الحبة لأنها من الجنة، لتكون داعية لك إلى جوهرها، وهي الجنة كما أن جوهرة التراب تدعوك إليها وهي الأرض، فخذ هذه يا آدم واغرسها، فغرسها آدم، فلما أنبتت واستغلظت وأخرجت شطأها، فازدهرت واستوت على ساقها أعجب آدم نباتها.

وكانت إذا طلعت الشمس طلعت عليها، وإذا غربت غربت عنها، وأينعت وازدهرت وأورقت، واخضرت، وأثمرت، وأخرجت كل ورقة منها سمة منقوشة بالسورية لا إله إلا الله.

---

(١) التَّلُّ: ما ارتفع من الأرض عما حوله، وهو دون الجبل. والجمع: تلال، وتلول .

فلما نظر إليها أعجب بها وقال: ليتني أعرف اسمها، فقيل له يا آدم هذه شجرة الزيتون، قال: يا رب، ولِمَ سميتها شجرة الزيتون وهى من شجرة طوبى[١] ؟ قال: لأنى زودتك بها يوم تبت عليك، فالزاى زاى الزاد، والياء ياء اليوم، والتاء تاء التوبة.

قال: يا رب فما الواو التى فيه؟ قال: تلك علامة السمة التى وسمت بها أمها وهى طوبى فأخرجت هذه تلك السمة.

قال: وما سمتها؟ قال: سمة طوبى أنى أنا الله، وسمة هذه، هذا المنقوش على أوراقه وهو لا إله إلا الله، قال فما هذه النور فى عقبيها؟ قال: ذلك علامة النون الذى وضعت فيها، فإن فيها نوراً يضئ منها، وهو الذى قال: ﴿يكاد زيتها يضئ * ولو لم تمسسه نار﴾[٢] .

رجعنا إلى ما كنا فيه، فشبه دهن شجرة القلب، وهى المعرفة بدهن شجرة الزيتونة التى هى لا شرقية ولا غربية وهى التى غرسها آدم يومئذ.

يقول: فكما أن الزيتونة إذا كانت بتلك الحال يكون أجود لثمرها، وأحسن كذلك يكون ثمر شجرة المعرفة أحسن وأجود إذا كانت لا شرقية ولا غربية.

---

(١) تحدث المفسرون رحمهم الله كثيراً عن شجرة طوبى فى الجنة، وطوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤ — وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال: طوبى لمن رآنى، وآمن بى، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى، قال له رجل، وما طوبى؟ قال، شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة، تخرج من أكمامها .

(٢) سورة النور / الآية ٣٥ .

فشمس الزيتونة[1] شمسنا هذا، وشمس شجرة المعرفة نظر الله الجميل إليها كل يوم بكرة وأصيلاً، وليس فيها بينه وبينها شي يمنعه عن النظر إليها، وذلك أنه إذا كان بين نظره وبين الشجرة هواء أو شي. لم يقع النظر على الشجرة، كما أنه إذا كان بين الشجرة وبين الشمس حائط أو ستر، لم يقع عليها الشمس وتفيت تحت ظل الحائط، فسقمت وذللت وتناثرت أوراقها، واصرفت وتغيرت عن حالها وما أخرجت من الثمار أخرجت نكداً لا مذاقة لها، وخوفت عليها، ولذلك قيل الزيتون لا يستقر في بطن المنافق حتى يقئ، ولا يطيق أكله إلا مؤمن طيب، لأنها من طوبى، وطوبى من الجنة، ولا يستقر ثمر الجنة في بطن المنافق.

وأما تفسير شجرة طوبى التي الزيتونة منها، وتفسير سمتها والبركة التي فيها، فإن الله تعالى لما أراد أن يغرس شجرة طوبى خلق جوهرة، ثم شقها فاستخرج منها حبة، ثم شقها فحشاها بالبركة والبر والبهاء، وطواها في لباس الرحمة، ووسمها بسمة ﴿إنى أنا الله لا إله إلا أنا﴾[1]، ثم هيأ لها في متوسط الجنان ومدانها ومحالها، فنشر فيها المسك والورس فأخذها بيده يوم الأحد

---

(١) ينبغي توضيح المقصود بقوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال بعض المفسرين: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت. وهي ليس بشرقية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولا غربية، لا تصيبها الشمس إذا غربت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت.

وقال أبي بن كعب: هي وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً وغرباً .

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ﴾ قال: هو أجود الزيت، قال: إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .

(١) سورة طه / الآية ١٤ – والآية الكريمة ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى﴾.

فغرسها فيها، فيبست من ساعتها وأخرجت شطئها، وأورقت واستوت على ساقها واخضرت وازدهرت، واينعت ما به غصن عدد درجات الجنة، في كل درجة منها غصن.

أصلها من ياقوته حمراء، وأغصانها من جوهرة صفـراء، وأوراقها من زمرد خضراء، وثمارها على صفاء اللؤلؤ وبياضه أطيب من المسك، وأحلى من العسل، تؤتي أكلها كل ساعة ما شاء الله حلياً وحللاً وثماراً وجواري وغلمان منقوشة على كل ورقة منها كلام بالعربية ﴿إني أنا الله لا إله إلا إنا﴾ ﴿رحمتي وسعت كل شيء﴾[1] كتبتها الذين يؤمنون ويصدقون محمداً خاتم الأنبياء.

فلما نظر الجليل إليها رضي بها، وباهى بها جميع الأشجار والثمار وقال: رحمتي عليك ونظرى إليك أني أنا الذى خلقتك وأن الذى رتبتك، إني أنا الذى طويتك في لباس الرحمة، إني أنا الذى وسمتك سمتي التي عليك، إني أنا الذى باركت عليك، وحشوتك بالبر والبهاء والبركة، إني أنا الذى غرستك بيدى فأنت غريسة يدى ومختارة خلقي، من بين الأشجار قد اشتققت لك اسماً من أسماء من صنعي بك وبما حشوت فيك، فأنت طوبى طوبى.

فالطاء طاء الطوبى حيث طويتك في الرحمة، والواو واو السمة حيث وسمتك بسمتي، والباء باء البر والبركة والبهاء الذى حشوتك بها، والياء ياء الندى الذى

---

(١) هذا جزء من آية كريمة من سورة الأعراف، وذلك في قوله تعالى ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ الآية ١٥٦ .

بيدى غرستك[1].

فكل حرف من اسمك دليل على صنعى، وعلى ما حشوتك به من نظرى إليك، وطوبى لك، فيا طوبى لمن نالك، ويا طوبى لمن وصل إليك، واستظل بك، أطف بك على خلقى الأعلى من تُقربى على إقرار توحيدى إنى أنا الله لا إله إلا أنا.

وقد قيل إن الأشجار ثلاث، شجرة الزيتونة فى الأرض، وشجرة طوبى فى الجنة، وشجرة المعرفة فى قلوب المؤمنين، وكل حرف من هذه الأسماء يدل على نفسها، وصنع الله لها، فشجرة الزيتون اسمها الزيتونة وهى كما ذكرنا، وشجرة طوبى اسمها طوبى، كما ذكرنا، وشجرة المعرفة اسمها الطيبة كما قال الله تعالى ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء﴾[2].

فالتى فى الجنة طوبى والتى فى قلوب العباد طيبة، فتلك أربعة أحرف وهذه أربعة أحرف، إلا أن فيها واو زائدة، وفى هذه هاء زائدة، وهناك الباء قبل الياء، وها هنا الباء قبل الياء، وهذا تقدير وتدبير من العزيز العليم، فهمه من فهمه وجهله من جهله، وسنذكر منه ما يستدل به على معناه أولى العقل من الناس، أما الطاء فطاء الطوع، وأما الباء فباء البيعة، وأما الهاء فهاء هو.

فإذا جمعت بين حروفها دل على أن الخلق بها أطاعوا ربهم، ويد الله

---

(١) ينتهج الشيخ رحمه الله منهجاً فريداً فى التحليل الهجائى للأسماء، وربط ذلك بالمعانى والدلالات المستكنة فيها، مما جعله يخلص إلى حقائق مهمة عن تلك الأسماء، وهذا ما فعله فى تحليله لأسماء إبليس وآدم والعقل والقلب وفرعون وإبراهيم والزيتونة وطوبى. وتحليله لكلمة التوحيد لا إله إلا الله . ويتخذ رحمه الله من تفسير كل حرف ما يربط بدلالة الكلمة ذاتها فلا يكاد يمر على حرف حتى يستخرج ما فيه من أسرار ومكنونات وعلامات ودلائل تتصل بطبيعة هذا الإسم .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٢٤ .

بايعوابها: نقول لها أطاعوه وبها بايعوه.

وذلك أن الله لما أراد أن يأخذ عليهم الميثاق، ويشهدهم على أنفسهم، وبايعهم على أنهم لا يطيقون أن يبايعوا يده، فابدل الله تعالى مكان يده حجرة أخرجها من الجنة فبايعوه بها فسماها طيبة بذلك، ومن ذلك قيل الحجر يمين الله في الأرض .

تفسير قوله تعالى ﴿آلـم﴾[1] :

قال: قد تكلم الناس فيها حتى أكثروا، وقد ذكرنا بعض ذلك في صدر كتابنا هذا، ولكن في الجملة، نذكر منه ما تحتمله قلوب الخلق، ويكون لآبائهم مساعاً[2]. إن حشو الألف الوحدانية والربوبية والفردية والألوهية وأسماؤه وصفاته الذاتية، فجميع ما يخرج من هذا النوع إنما يخرج من الألف وهو الله.

وحشو اللام اللطف والإحسان والبر والعفو والرحمة والصفح وما يشبهما يخرج من اللام وهو اللطيف، وحشو الميم الملك والقدرة والجبروت والسلطان والقهر والعذاب وما يشبهها يخرج من الميم، وهو الملك، وفي بيان ما قلنا: شفاء لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعمى لمن جعل الله صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء.

تفسير قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[3]:

وقيل له: ما معنى قوله اهدنا الصراط المستقيم، وهو الإسلام، وقد هدى وأعطى، أليس محال أن يشهدوا: الإسلام وهم مسلمون؟

---

(١) سورة البقرة / الآية ١ .

(٢) من الناحية اللغوية الصواب أن يقال: ويكون لآبائهم مساع .

(٣) سورة الفاتحة / الآية ٦ .

قال: ليس هذا على ما ذهب إليه الناس، إن الهدى هدى الإسلام، ولكن هذا من هداية الطريق، لأن القوم خافوا على أنفسهم من الأهواء المضلة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم (أن بني إسرائيل افترقت اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة[١].

فنظر أولوا العقول من الناس فقالوا: إن هذه الفرق التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم قد ظهرت، وكل تدعى انها هي الجماعة، وكل على ما هو عليه فرح مستبشر كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[٢]، قال معجبون، فكل فرقة قد سمّت صاحبتها باسم من أسماء الهواء[٣] المضلة المردية المنسوبة إلى النار، عناه أولو العقول في ذلك، وخافوا على أنفسهم أنهم في بعض منها، وانهم لا يعلمون فحاروا إلى الله متضرعين خائفين، فقالوا: ﴿إياك نعبدوا وإياك نستعين﴾[٤] على عبادتك، اهدنا.

يقول: عرفنا يا رب طريقك المرضى، ومنهاجك الواضح من بين هذه الطرق والسبل، فإنهم يدعوننا اليها، ونحن لا نعرف أهي طريقك أم لا.

الصراط: يقول الطريق المستقيم الذى ترضاه لنفسك وميزته بحكمتك من بينها، صراط الذين أنعمت عليهم، وهم أهل الصلاح والأولياء، غير المغضوب

---

(١) ورد في الحديث بروايات عديدة كلها صحيحة، فقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن معاوية بن أبي سفيان، ورواه أبو داود كذلك بإسناد صحيح .

(٢) سورة الروم / الآية ٣٢ .

(٣) الهواء : الفارغة .

(٤) سورة الفاتحة / الآية ٥ .

عليهم: غير طريق اليهود، ولا الضالين: ولا طريق النصارى، وهي هو الاثنين والسبعين فإنها قد فشت في هذه الأمة.

فلو أن واحداً منا أخذ بواحدة منها، أخذ شعبة من تلك الأهواء النصرانية، فقوله: اهدنا[١]، نقول: عرفنا، ليس على ما ذهب إليه الناس من الهدى، فإن الله قد هداهم، ومحال أن يسأل الشيء الذي قد أعطى، وذلك في اللغة جارى يقال: أتهتدى منزل فلان، أي أتعرف.

ومثال ذلك في الدنيا، لو أن رجلاً حباه الملك بدرة[٢] من دينار من غير سؤال ولا تعرض، فنسي الرجل البدرة، وتقدم إليه يسأله بدرة أخرى من دينار، فما ظنك به؟

أليس يُهان ويطرد، ويقال: أليس قد أعطيناك؟، أمسك ما تسأل اليوم. فأنت كفور جهول، فيحرم العطية، ويغلق دونه باب الملك، فلو كان هذا لايستكثر من ملوك الدنيا، ويقبح عندهم، إذن هو أقبح عند الجميل الجليل.

---

(١) تفسير الشيخ رحمه الله للآية الكريمة لا يبعد عما ذهب إليه المفسرون لقوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ . فالذين انعمت عليهم جامعة للأنبياء والمؤمنين والمسلمين والشهداء والصالحين كما قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ .

وأما المغضوب عليهم فهم اليهود، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ والضالون هم النصارى، الذين قال الله عن بعضهم ﴿قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً﴾ . وقد روى ابن مردويه حديثاً عن أبي ذر الغفارى رضي الله عنه قال: سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال: اليهود، قلت: الضالين، قال: النصارى .

(٢) البَدْرَة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود. والجمع بدر .

ومثال الكلام، الأول أن القوم خافوا على أنفسهم اشتباه الطريق عليهم، فاستعرفوا ا لله الطريق المرضى من بينها كرجل دعاه الملك إليه على طريق يرضاه الملك أن يأتيه إليه في ذلك الطريق، ومن منزل الرجل إلى الملك مسافات وجبانات، وطرق مختلفة على عدد الاثنين وسبعين فرقة، على كل طريق منها دال يدله على الطريق، ويزعم أن الطريق المستقيم الذى يرضاه الملك، ويحب أن يؤتى إليه فيه هذا، ويجتهد في ذلك ويحتج ويبين، ويريه العلائم والشواهد، فينتبه الرجل، فيقول للملك: من بين هذه الطريق، طريق واحد، وأن كل واحد من هؤلاء يزعم أن الطريق الذى هو عليه، المرضى والمختار، وكل يدل بالحجج وبالشواهد، فيتفكر الرجل في ذلك، ويقول: لا أرى الحيلة على وجود تحرى مسرة[1] الملك في الإتيان إليه على سبيل يرضاه الملك ويختاره إلا بكتاب من عندى إليه استهديه محبوبه ومختاره من هذه الطرق واستعرفه ليعرفنى، ويهدينى إليه، فإنى قد تهت، ولا أدرى في أيها أسلك، فكتب إليه واستعرفه.

فقال: عرفنى أيها الملك طريقك المستقيم لأسلك فيه إليك فقد اشتبه على الطريق، فيقال له: أى صراط تريد؟ فيقول: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾[2]، أى حننت عليهم بأن عرفتهم طريق الرشد من طريق الغيّ بعدما تاهوا فيه كما تهنا، فيقال لهم: تعنون طريق اليهود ابتلاء واختباراً؟

فيقولون: غير طريق من غضبت عليهم وهم اليهود. فيقال: فطريق النصارى؟ فيقولون: ولا طريق الضالين من النصارى، وهم أصحاب الأهواء،

---

(١) مسرة من سرّه سروراً ، ومسرة : أفرحه .

(٢) سورة الفاتحة / الآية ٧ .

فاستجاب لهم ربهم، فقال: ﴿ولا يزالون إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[١] ، قالوا: فأى سبيل سبيلك، فقال: قل يا محمد ﴿هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾[٢] .

فقال: أى سبيل هذه؟ فقال: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[٣] .

قالوا: على أى سبيل؟ قال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾[٤] .

قالوا: وما ذلك؟ قال: ﴿وإن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[٥] .

قالوا: أى صراط هذا؟ قال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾[٦] .

وكذلك قال لداود عليه السلام: يا داود، لا تجعل بينى وبينك عالماً مفتوناً بالأهواء فيصدك عن طريق محبتى أولئك قطاع طريق عبادى، المريدين إن أدنى ما أصنع بهم أن أنزع حلاوة الإيمان من صدورهم.

---

(١) آيتان فى سورة هود / الآيتان ١١٨-١١٩ وقد سقطت منها كلمة مختلفين، ونص الآيتين الكريمتين هو ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

(٢) سورة يوسف / الآية ١٠٨ .

(٣) سورة الأنعام / الآية ٩٠ .

(٤) سورة الأعراف / الآية ٣ .

(٥) سورة الأنعام / الآية ١٥ .

(٦) سورة المائدة / الآية ١٦ .

فبين الله سبيل مرضاته من بين تلك الأهواء والسبل لعباده المريدين والمتحرين لمرضاته طريق الرشد في أي من القرآن ويهديهم إلى الاقتداء بالأئمة الصالحين والتمسك بأخلاقهم وسبلهم ما وافق كتاب ربهم فإن في موافقة الكتاب الحلول[1] على بساط مرضاه الله والتناول من ولائم الله، والشراب من كأس محبته.

تفسير لباسه :

باب تفسير لباسه، فالمعرفة ملك قد ملكه الله، وأحله موضعاً من أشرف النفس وأطرفه وأعلاه، وله لباس من الجمال، ولباس من الجلال، ولباس من السلطان، ولباس من العظمة، ولباس من الهيبة، ولباس من الجود، ولباس من المجد، ولباس من الكرم، ولباس من الرحمة، ولباس من العطف، ولباس من الرأفة، ولباس من الشفقة، ولباس من الجبروت، ولباس من الملكوت، وعليه تاج من الألوهية، قد سطع نوره إلى ذى العرش المجيد.

وله شأن أعود من هذا، ينبه أفهام العامة في عجائبه قد كتمناها خوفاً من ولوج الوساوس على أعين قلوبهم، والافتتان بها، لكنه علم عجيب جليل .

تفسير حجبه :

باب تفسير حجبه: وبين يديه حجب من العدل، والحق، والعظمة، والهيبة، والسلطان، وحجب من النور، وحجب من الرحمة، وحجب من الكبرياء .

---

[1] حَلَّ بالمكان: نزل به – وحلولاً : نزولاً . والجمع: حلول .

صفة العقل :

باب صفة العقل، وأما صفة العقل، فإن الله تعالى خلق العقل من نـور الهيبة، وهو ثلاثة أحرف في الكتاب، عين وقاف ولام.

فللعين خمسة معاني، من العزة والعظمة والعلو والعلم والعطـاء، فهـذا تفسـير معنى العين، ولكل حرف منه جوهر، فوضع من كل جوهر فيه.

فقولك العين فيه العظمة والعـزة والعلـو والعلـم والعطـاء، وأمـا القـاف فلهـا خمسة معان، فالقاف من القربة والقول والقرآن والقوام والقـدرة، فـإذا قلـت عـق، دخل فيه عـين وقـاف، ومعـاني العـين، ومعـاني القـاف، وأمـا الـلام فمـن اللطـف، واللطف من الرحمة، والرحمـة مـن العطـف، والعطـف مـن الشـفقة، والشـفقة مـن الشوق، والشوق من الحب.

والحب حرفان، حاء وباء، فالحياة والحياة والحلم والحكمـة، فـإذا قلـت حـاء دلك هذا الحاء على أن فيه الحياة، والحياء والحكمة.

وأما الباء فمن البر والبهاء، فحاء الحياة أحيا جسده، وبحاء الحـب أحيـا قلبـه حتى عرفه، وبباء البر بره بنعم الدنيا، وبباء البهاء باهى بـه عنـد الملائكـة، فـالعقل، خلق فيه ما وصفنا، يخرج من حروف، خلقته هذه المعاني، ثم هو في صورته أحسن الخلق وأزينه، ثم في لباسه أحسن الألبسة وأشرفها.

وحشاه بأنواه الوحدانية والفردية والكبرياء، وكساه بكساء من نور الكمال، نور البهاء، ونور الجلال، ونور السناء، ونور الحسن، ونور العظمة، ونور الهيبة.

فلما فرغ من خلقه قال له: أقبل، فاقبل، ثم قال له: أدبر، فادبر، ثم قال لـه: أقعد، فقعد، فقال: وعزّتـي، مـا خلقـت خلقـاً أحسـن منـك، ولا أجمـل منـك، ولا

أشرف منك، ولا أنبل منك.

خلقتك من نور، وحشوتك بالنور، وكسوتك بالنور، وقربتك بالنور، وأمدك بالنور، وأسكنتك معدن النور، فأنا النور، ومعرفتي نور، وكلامي نور، وأنت من نور النور، فأنت نور على نور، أهدى نوري من أشاء من عبادي.

ثم قال له: من أنا؟ قال: أنت الله الذي لا إله إلا أنت قال: فقال الرب: بك أطاع، وبك أشكر، وبك أعطي، ولك الثواب، وعليك الحساب[1]. قال: فهذه صفة العقل .

باب صفة جنوده :

باب: وأما صفة جنوده، وأسمائهم: فالعلم، والحلم، واليقين، والحق، والبصر، والفطنة، والفهم، والوقار، والسكينة، والحياء، والبصر، والهدى، والرشد، والحفظ، والعفاف، والرزانة، والتقى، والفكرة، والتذكر، والعفو، والبر، والرحمة، والرقة، والرأفة، واللطف، والعطف، واللين، والجود، والمجد، والعطى، والحمد، والذكر، والثناء، والشكر، والهيبة، والسلطان، والكبر، والعظمة، والفخر، والعزة، والتواضع، والتضرع، والخشوع، والخضوع، والصدق، والصلة، والإخلاص،

---

(١) الأحاديث النبوية التي وردت بشأن العقل وردت بروايات عديدة، وهي وإن كانت لم ترد في كتب الصحاح المعروفة، لكنها يستدل بها على أن الله تعالى خلق العقل بعد أن خلق تعالى القلم ثم خلق النون وهي الدواء، ومن ذلك ما رواه ابن عساكر عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿إن أول شي خلقه الله القلم .. إلى أن قال صلى الله عليه وسلم: ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت .

والنية، والعزم، والحزم، والوفاء، والعدل، والسلام، والسداد، والإحسان، والشوق، والحكمة، والعبادة.

والقناعة، والرضا، والحذر، والتدبير، والرأى، والتوكل، والتفويض، والتسليم، والظفر، والنصر، والنصح، والصفح، والغفران، والستر، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والخوف، والعصمة، والنوال، والصدارة، والصمت، والحب، والأمر، والنهى، والصلابة، والخلق، والسمت[١]، والذهن، والإلهام، والمراقبة، والغناء[٢]، والتوبة، والإنابة، والمزح، والسرور، والعبرة، والعفة، والندامة، والذكاء، والكياسة، والزهد، فهذه مائة أمر لجنود العقل .

باب أمور جند العقل:

باب أمور الجند، وعماله، وأمرآته. فأما العلم والحلم، فهما وزيرا العقل واليقين قائم الجيش، والحق صاحب المظالم، والبصر الفتح، والفطنة الطليعة، والفهم صاحب الثبات، والوقار والسكينة قائدان، والحياء صاحب السر، والصبر صاحب الاستدراج، والهدى والرشد الدليلان، والحفظ والصيانة صاحبا الكنوز والعفاف.

والرزانة والتقى والورع أصحاب الخزائن، والفكر، والتذكر صاحب المكر، والعفو والبر صاحبا الملح، والرحمة والرقة واللطف والمراقبة واللين والصدارة أعوان القاضى، والجودو والجد والعطاء والكرم أصحاب الأرزاق، والحمد والذكر والثناء والشكر أصحاب المدد والهيبة والسلطان، والكبر والعظمة والفخر والعز الأبطال المحاربون، والتواضع والخشوع والخضوع الرّجالة، والصدق القاضى والصحة

---

(١) السمة: الطريق الواضح، ويقال سمت فلان أى هيئته .

(٢) الغناء: النفع والكفاية .

والإخلاص والنية، والعزم والحزم أصحاب المبارزة، والوفاء والأمين، والعدل الصبحان، والسلامة والسداد أصحاب الأعلام، والإحسان صاحب الرايات.

والشوق صاحب اللواء، والحكمة الحاكم، والعبادة والخدمة والقناعة والرضا قيم الأمور، والحذر المدبر، والرأى صاحب المشورة، والتوكل صاحب الحصن، والظفر والنصر الرماة، والنصح والصفح الرسل، والرغبة والرهبة، والرجاء والخوف للشاكرين، والمداراة والصمت أصحاب الرصد، والحب البندار[١].

والأمر والنهي، والعهد والميثاق، والصلابة الجلاد، والخلق والسمت الوكيلان، والحدة صاحب الشرطة، والذهن أمير الجيش والإلهام رسول الملك الأعلى، والمراقبة صاحب الأخبار، والغنى الطبال، والفرح والسرور والانبساط اللعب، والعين الجاسوس، والعظة المنادى، والذكاء والكياسة الغاشيات، والورع والزهد المحتسبان، والتوبة المقدم، والندامة الساقة؛ فهذه صفة الجنود وأمورهم وأمرائهم وعمالهم، وفراسهم ورجالتهم.

باب: صفة إبليس وجنوده:

وصفة الهوى، وصفة جنوده، فأما صفة اللعين وصفة جنوده، فإنهم اثنى عشر وزيراً تحت يدى كل واحد منهم مائة ألف قائد، ثم تحت كل واحد منهم مائة ألف، حتى أن على رجل واحد من بنى آدم تبعث أكثر من ربيعة ومضر.

وكل قائد منهم على أمر له من أخلاق السوء ما به، وكما أن ملك المعرفة العقل، كذلك الهوى ملكه، فاما أسماء وزرائه الإثنى عشر، فأولهم كرام بن كريم، وهو

---

(١) البندار: مرسى السفن فى الميناء.

صاحب مكارم الأخلاق في الجر والنهي عن مساوئها، والأمر بالفضل والأخذ به.

والثاني هامة بن إبليس، وهو صاحب كبائر الذنوب، والثالث شيطان بن سوقان، وهو صاحب الأسواق بأمر بالتطفيف، والرابع الزويغ بن دامغ، وهو صاحب السعايات والنميمة، والخامس أم روبن، وهي صاحب الحروب التي تهيج بين الناس، وتأمرهم بالقتال.

والسادس شيطط بن لويط، وهو الذي يأمر بالقرطب[١] والقيادة والفجور، والسابع شوقت بن وهب وهو صاحب التخليط بين الناس، وترك النصيحة والاستقامة.

والحادي عشرة قابظ بن قوطل، وهو الذي يأمر بكل شر والشتم والمنافرة؛ والثاني عشر عزارين حسوب، وهو صاحب الملاهي والمجالس التي تشرب فيها الخمور، ويعتكف فيها بالفجور، وله عرات[٢] وصنّاع سوى ذلك ممن اتخذوا المعازف والملاهي يفتنون بها الخلق، ويلهولهم بها.

وكان بدء جميع الملاهي منهم أسماء أصحاب الصنائع والعملة، وأصحاب المعازف والملاهي، وهم أكرم الخلق على اللعن، وهم أبو سملقة وهو أول من اعتصر الغيث فخمر وشرب وتغنى[٣]، وهو أول من عرق، وذلك أنه أخذ بحفنة فتحلب ماء الكرم وشرب منه، ثم وضعها تحت الكرم، وغطى رأسها بورقة، ثم عاد إليها بأيام فإذا هرين[٤] ورغوة: سقاه

---

(١) القَرْطَب: وردت هذه الكلمة عدة معانٍ قاموسية، فترد بمعنى الصرع على القفا، وبمعنى صغار الجن، وبمعنى الغضب، والعَدْوُ.

وربما كان معنى الغضب هو الأنسب للسياق.

(٢) من العُرى: وهو التجرد من الثياب.

(٣) وردت في الأصل "وتغفا"

(٤) الهرين: لم نستدل على معنى لها في قواميس اللغة.

أخاه شهاب منه فسكر، فعزف فسمي أخوه عزافا، وسمي هفافا، وكان اسمه قبل ذلك مسقص.

باب ومزة بن الحرث أول من اتخذ البربط[١] :

وذلك أنه أتى هفافاً يوماً فسقاه الهفاف من شرابه، فطار فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فبقي فيها سنة يتفكر في شئ يأتي به يذكر به كما ذكر الهفاف بالعصير.

فإذا هو يوماً بطائر له صوت شجي حسن فسمع صوته فأعجب يارنه، فَنَحَتَ عوداً[٢] وشدّ عليه خيوطاً من لحاء الشجر، حتى صيره على صفة العود فاتّخذ عوداً، ثم اتخذ من بعد ذلك أوتاراً بعد اللحاء من أذناب الخيل ضربه.

باب: ولوقس بن لاقس، أول من اتخذ المزامير:

وذلك أنه مر يوماً بالهفاف ومرّه وهما يطربان فسمع صوتاً لم يسمع بمثله قط، فدنا فشرب شراباً لم يشرب مثله قط فطار حتى وقع إلى أرض بابل، فمكث سنة متفكراً لبدعة حتى سمع ليلة صوت ذبابة، فتناول قصبة[٣] فنقبها؛ ثم نفخ فيها.

باب: وصهيب بن عازب، وهو الذى اتخذ المصبح:

وذلك أنه وقع عند الهفاف وأصحابه فوقع في جزيرة البحر، فظل فيها دهراً ملتمساً بدعة حتى هاجت يوماً ريح عند الصف فوقع الريح في ورق شجرة يابسة، فصَتت فاعجبته فاتخذ صيحاً.

---

(١) البربط: العود، وهو من ملاهي العجم، وفي حديث على بن الحسين، لا قُدست أمة فيها البربط.

(٢) الإرن، من أرِن، أرَناً وإراناً: نَشِط ومَرِح فهو أرِنٌ.

(٣) القَصَبَةُ: كل أنبوبة في ساق الشجر تنتهي بعقدتين.

باب وأبو ليسم:

وهو الذى ابتدع الطبل، وذلك أن فطا[١] يوماً ذيله على، باطيه هفاف، فجعل هفاف يضرب يده عليه، فصوت فجعل مكان الذيل جلداً.

باب: أسماء أصحاب المنازل والحرف:

وشيطان يقال له القصقام بن القست وهو ساكن المزابل تنضح البول على الثياب، وشيطان يقال له الدفوف بن القارب وهو على المطبخ يشغل النساء لتحرق الأجرة لتغضب الأزواج وعلى القدور بملحها، والرياض بن الدمدان، وهو على الأموال والكنوز، والراتب شو، وهو صاحب الحمّام، والضحّاك بن المقطب وهو على الرقاق[٢] والمسلك[٣]، والمربعات[٤] يرشد السكارى إلى بيوتهم، والعصّوف بن الجد، على مجالس الفتان والعزف، وهما شيطانا العربدة، والجسور بن اللطف، وهو الذى يجمع بين الغلمان والنساء، والبحيث بن المقحم، وهو الذى على الأسواق، والدويف بن القلقل، وهو الذى على حوانيت الخمور.

باب: لما أراد الله أن يسكن الخلق الأرض:

خلق الجان من نار السموم[٥]، وخلق زوجته منه، فغشيها فحملت إحدى

---

(١) فطا: فطا الشي يفوه فطواً: ضربه بيده وسدَخَهُ.

(٢) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق. واحدته، رُقَقَة.

(٣) المَسْلك: الطريق والمنفذ، والجموع: مسالك.

(٤) المربعات لعلها من المَرْبَع، وهو الموضع الذى يقام فيه مجاز من الربيع، وإن كانت هذه الكلمة تجمع على مرابع.

(٥) السموم: وردت إشارة إلى هذه الكلمة فى قوله تعالى ﴿والجان خلقناه من قبل نار السموم﴾ الحجر: آية ٢٧. والسموم هى الريح الحارة الشديدة؛ نقرأ فى هذا قوله تعالى عن أهل النار ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. فى سموم وحميم﴾ الواقعة.

وثلاثين بيضة، فوضعت بيضة واحدة، ففقأت عن قطربه، وهـي أم القطـارب، فلما طلعت رأسها قالت الجنّة وهي زوجة الجـان: ياقطربـه سمعنـا دعـوت، قـالت الجنّـة: احص ولدى، قالت قطربه: ما خلقت؛ فوضعت الجنّة ثلاثين بيضـة، فحفنهـا قطربـة فتعلق منها عشر بيضات.

فكان في البيضـة الأولى، الأبالسـة، منهـم الحرث لبوزة عـدّو آدم ونسله، فسكنوا البحور، تعلقت البيضة الثالثة عـن الفيـلادة، فسكنوا الخرب والفلـوات، وتعلقت البيضة الرابعة فسكنوا الجبال والرمـال، وتعلقـت الخامسـة عـن الطهـامن، فسكنوا الأدغال والأحجام.

وتعلقت السادسة عن الأراحيل، فسكنوا العيـوان ومجامع الطـرق، وتعلقـت السابعة عن النهاوبين فسكنوا الحمامـات والمزابـل والكنـف، وتعلقـت الثامنـة عـن الهوام فسكنوا الهواء وغيره، وتعلقت التاسعة عن الأراى فسكنوا معـارك الحـروب والنوابس والفنون، وتعلقت العاشرة عن الدواجن فسكنوا الدار والقصـور وخيّـام الأعراب.

وأما العشر الفوافى فإن قطربة حملتهن، وطارت في الهـواء حتـى إذا كـان بين مسقط عين الشمس ومطلع سهيل، فقسـمت منهـن خمساً ثـم قـال: غمـروا وأكثروا ومضت، حتى إذا كـان بـين مطلـع سـهيل وبين مطلـع قـرن الشـمس فقسمت منهن خمساً، وقالت لهن مثل ذلك.

ثم مضت حتى إذا كانت بـين مطلـع قـرن القمـر ومطلـع مدلـت النعـش فقسمت خمساً، وقالت لهن مثل ذلك ثم مضت حتى إذا كانت بين مطلـع نبـات النعش ومسقط عين الشمس فقسمت خمساً ثم قـالت مثـل ذلـك، ثـم رجعـت القطربة إلى الجنّة فقالت: ملأت البر تعلقت كل بيضة عن ألف قوام ذكر وأنثى

حدثنا بذلك كله، وقد ذكر إسناده عمر راوى هذا الحديث فاسقط به ناسخ أصل الذى نقلت منه.

قال: فهذا كله عدو آدم وذرية بيت اللعين وسراياهن وسوم أموره، ومدبر ومسلط حتى إنه ليبعث ألف سرية على رجل واحد من ولد آدم فى المكر عليه.

إبليس ويحيى عليه السلام:

صفة إبليس اللعين، حدثنا أبو مقاتل عن صالح بن سعيد، عن أبى سهل عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : "إن إبليس عدّو الله كان يأتى الأنبياء ويتحدث إليهم من لدن نوح إلى عيسى بن مريم، وما بين ذلك من الأنبياء، غير أنه لم يكن لأحد أكثر زيادة ولا أشد استئناساً منه إلى يحيى بن زكريا عليه السلام، وأنه دخل عليه ذات يوم فلما أراد الانصراف من عنده قال له يحيى: يا أبا مرة واسمه الحرث وكنيته أبو مرة، وإنما سماه الله إبليس لأنه أبلس من الخير كله يوم آدم فقال له: يا أبا مرة إنى سائلك حاجة وأحب أن لا تردنى عنها.

فقال له : ولك ذلك يا نبى الله فسل، فقال له يحيى بن زكريا: إنى أحب أن تجتنى فى صورتك وخلقك وتعرض علىّ مصائدك والتى بها تهتلك الناس[1].

قال إبليس : سألتنى أمراً عظيماً ضقت به ذرعاً، وتفاقم خطبه عندى، ولكنك أعز علىّ ، وآمن من أن أردك فى مسالة ولا أبيك بحاجة، ولكنى أحب أن تخلو برؤيتى فلا يكون معك أحد غيرك، فتواعدا الغد عند ارتفاع النهار. صدر من

---

(١) من الهلاك ، فيقال هَلّك الناس أى استوجبوا النار ، والخلود فيها بسوء أعمالهم، ومنه فى الحديث (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم).

عنك على ذلك، فلما كان من الغد فى تلك الساعة تمثل بين يديه قائماً، فنظر إلى أمر الله عظيم، وإذا هو ممسوخ منكوس مقبوح هائل، كرم جسده على أمثال أجساد الخنازير ووجهه على وجه القرده، وشق عينيه طولاً وشق فاه طولاً حيال رأسه وأسنانه كل عظم واحد، لا دقن له أصلاً ولا لحية وشعر رأسه معلل مقلوب المنبت نحو السماء، وله أربعة أيدى، يدان فى منكبه، ويدان فى جبينه وأصابعه فما يليه من القدم خلفه وعواقبيه أمامه، وأصابع يديه ستة، وجسده أضلت، ومتخلدى أنفه نحو السماء له خرطوم كخرطوم الطير، ووجهه قل القفا، أعمش العينين، أعرج، معوج، له جناح، وإذا عليه قميص مقلص قد تمنطق، فوقه بعل المجوس، وإذا أكواز صغار قد علقه من منطقة، وحوالى قميصه جاعل ستة الشرب فى ألوان شتى من بياض وسواد وحُمرة وصفرة وخضرة، وبيده جرس ضخم وعلى رأسه بيضة فى قلبها حديدة مستطيلة معففة الطرف.

فقال له يحيى: أخبرنى يا أبا مرة، عما أسألك مما أرى ، قال: يانبى الله ما دخلت عليك على هذه الحالة، إلا وأنا أحب أن أخبرك بكل شئ تسألنى عنه ثم لا أعمى عليك.

فقال: حدثنى يا أبا مرة عن الطاقك هذا فوق القميص ماهو؟ قال: يانبى الله تشبه بالمجوس، أنا وضعت المجوسية فدنت بها.

قال: فأخبرنى ما هذه الأكواز الصغار التى هى معلقة من منطقتك مقدمة؟ ، قال: يانبى الله، فيها شهوات وحبائل مصائدى، فأول ما أصيد به المؤمن من قبل

النساء[1]، فإن هو اعتصم بطاعة الله أقبلت إليه من قبل جمع المال من الحرام؛ طمعاً فيه وحرصاً عليه؛ فإن هو اعتصم بطاعة الله واجتنبني بالزهادة، أقبلت إليه من جهة الشراب هذا المسكر حتى أكرر عليه هذه الشهوات كلها، ولا بد أن يواقع بعضها، ولو كان من أورع الناس.

قال: فما هذه الحبائل إلى طرف؟ قال: يانبي الله، هذه ألوان أصباغ النساء وزينتهن، ولا تزال إحداهن تلون ثيابها حتى يأتي على ما يليق بها فهناك أفتز[2] الرجال إلى ما عليها من الزينة.

قال: فما هذا الجرس بيدك؟ قال: يانبي الله هذا معدن الطرب، وجماعة أصوات المعازف من بين بربط وطنبور ومزامير وطبول ودفوف ونوح وغناوات القوم، يجتمعون على محفل شر، وعندهم بعض ما ذكرت من هذه المعاني فلايكا دون يتمهمهون[3] في مجلس ويستلذون ويطربون.

فاذا رأيت ذلك منهم حركت هذا الجرس فيختلط ذلك الصوت بمعازفهم، فهنالك يزيد استلذاذهم وتطريبهم، فمنهم من إذا سمع هذا يفرقع أصابعه، ومنهم من يهز رأسه، ومنهم من يصفق بيديه، فما يزال هذا دأبهم حتى أبرمهم، قال: فما هذه البيضة على رأسك؟ قال: يا نبي الله، احترز مني ومن مصائدي التي وصفت لك الأنبياء والصالحون والنساك وأهل الورع، كما أحرز رأسي هذه البيضة من كل نكبة.

---

(١) نقرأ في التحذير من النساء أحاديث عديدة منها قوله ﷺ (اتقوا لدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه الترمذي عن أبي سعيد.

(٢) أي استفزهم واستخف بهم، وفي هذا نقرأ قوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ الإسراء: آية ٦٤.

(٣) الهمهمة: ترديد الصوت في الصدر . والهمهمة: الكلام الخفي .

قال: وما النكبة؟ قال: اللعن.

قال: فما هذه الحديدة المستطيلة التي في قلبها؟ قال: يا نبي الله هي التي اقلب بها قلوب الصالحين، قال: بقيت حاجة، قال: قال، قال: ما بال خلقك وصورتك على ما أرى من القبح والتقليب والإنكار؟

قال: يا نبي الله هذا نسب أبيك آدم، إني كنت من الملائكة المكرمين فإنني لم أرفع رأسي من سجدة واحدة أربع مائة ألف سنة فعصيت ربي في عدم سجودي لأدم أبيك، فغضب الله علي ولعنني، فحولت من صورة الملائكة إلى صورة الشياطين.

ولم يكن في الملائكة أحسن صورة مني، فصرت ممسوخاً منكوساً مقبوحاً مقلوباً هائلاً كريهاً كما ترى.

قال: فهل أريت صورتك هذه أحداً قط ومصائبك بهذه الصورة؟ قال: لا وعزة ربي، إن هذا الشيء ما نظر إليه آدمي قط، ولقد أكرمتك بهذه دون الناس كلها، قال: فنعم إكرامك إياي بمسألتك مسألتين، إحداهما عامة والأخرى خاصته، قال: فذلك يا نبي الله فسل.

قال: حدثني أي الأشياء أرجى عندك وأدعمه لظهرك، وأسلاه لكآبتك، وأقره لعينك، وأشده لوقتك، وأفرحه لقلبك .

قال: يا نبي الله: إني أخاف أن تخبر أحداً فيحفظون ذلك، فيعتصمون به، فيضيع كيدي.

قال: إن الله قد أنزل في الكتب شأنك وكيدك، وبينك لأنبيائه وأوليائه،

فاحتززوا ما احتززوا، وأما الغاوون فأنت أولى بهـم، قد تلعب بهـم كالصوالجـة[1] بالكرة، فليس قولك عندهم أوعى وأعز من قول الله.

قال: يا نبي الله، إن أرجا الأشياء عندى وأدعمه لظهرى وأقره لعيني النساء، فإنها حبالتي ومصائدى وسهمى الذى به لا أحظى بإياهن، ولـو لم يكـن مـا أطقـت إضلال أدنى آدمي، قرة عيني بهن، أظفر بمقراتي، وبهن أوقع في المهلك باجتداهن، إذا اعتممت لبست على النساك والعباد والعلماء غلبونـي بعـد مـا أرسلت عليهـم الجيوش فانهزموا.

وعندما ركبت وقهرت ذكـرت النسـاء فطابت نفسـي، وسـكن غضبـي، واطمئن كظمي، وانتسف غرظي، وسلت كآبتي، وقرت عيني، واشتد أزرى.

ولولاهن من نسل آدم لسـجدتهن فهـن سداى، وعلـى عتقـي سـكنائهن وعلى تمائمهن ما اشتهت امرأة من حيالتي تلـى حاجـة إلا كنـت أسـعى برأسـي دون رجلي في إسعافها بحاجتهـا، لأنهـن رجـائي وظهـرى وعصمـتي ومسـندى وثقتي وعوني.

قال: وما نفعك ومزجك في ضلالة الآدمي، وبأى شئ سلطت عليـه؟، قـال: خلق الله الأفراح والأحزان، والحلال والحرام، وخـيرلى فيهمـا يوم آدم، فاخـترت الشـهوات والأفـراح، واخـترت الحـرام والفحـش والمناكير. صـارت تلـك تهمنـي وهواى.

وخير آدم فاختار الأحزان والعبادة والحـلال، فصـار ذلـك لـه تهمـة ومنيـة، فذاك منيته وقمته، وهذا هواى ونهمتي وشهوتي، وذاك شيه ومالـه ومتاعـه، وهـذا

---

(١) الصوالجة: كلمة فارسية مُعرفة والصولجان عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب .

يشيتي وماله ومتاعي وبضاعتي، وشئ المرء كنفسه، لأن فيه نهمته[١].

وشهوته، ونهمة المرء وشهوته حيوته فإذا سلب الحيوة هلك المرء، فكم من خلق الله ترى من سلب منه نهمته وشهوته وهمته فمات وهلك، فكذلك هذا. إنما اخترت ما اخترت فصار ذلك شهوتي وهواي وحياتي، متى ما سلبت هلكت، ومهما ظفرت به فرحت وحييت، فإذا رأيت شهوتي وهواي وحياتي عند غيري قد سلبها مني كل الجهد حتى أظفر بها ليكون بها قوامي.

فهذا الآدمي سلب حياتي، وهي الشهوة والهوى، فجعلها في كنه وحرزه وقد تهيأ واستعد يقاتلني ويحاربني، فهل بد من المحاربة ليصل المحق إلى حقه، ويقهر الظالم، فهذه حالتي وشأني وسبب فرحي إذا غلبته.

قال له: وما ظلمه حيث يقول يقهر الظالم؟ قال: ظلمه إذا سلب هواي فجعله في كنه، فلولا ظلمه وإلا ما كنت أطمع في حربه وحلاله كما طمع في حرامي وهواي.

قال له: أليس محال أن يقول أنا أريد استرداد هواي منه وتفرح إن هو استعمل، وتحزن إن لم يستعمل هواك في شؤونه؟.

قال: إذا استعمل هواي لست أحزن، ولكني أفرح لأنه قد أعطاني نهمتي، وإنما أحزن حين لا يستعمله، ولست أطلب نهمتي لأخذه مني، فإني قد منت أن لا يرد، لأنه قد جُبل عليه، ولكني أريد استعماله فإذا استعمله أعطاني منيتي واختياري وحياتي، فهو نفسي فإذا استعمل منيتي أحياني وفرحني لأنه استعمله

---

(١) النَّهمة: بلوغ الهمة في الشئ والنهمة: الحاجة، وبلوغ الشهوة في الشئ، وفي الحديث ﴿إذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله﴾.

على جهته، وإذا لم يستعمله على جهته فهو في كنه كالمسجون.

فإذا كان هو في كنـه مسـجوناً مقيـداً وهـو حيـاتي، كنـت كـأني المسـجون المقيد، وصرت حزيناً لأنه أبدلني بمكان حيـاتي الموت فلابـد أن احتـال بكـل حيلـة وآله بكل خدعة، وأحي الآلة والأدوات وأخرج الملاهي وأدواته وأضربها وأحركها وألوحها لعله يرى ذلك، فيطرب ويذكر وينشط ويقر ويهيج، فيستعمل الهوا الذي فيه وهي حياتي وشهوتي.

فأحيا وأبهج حتى يجد هو السبيل إلى التحرك والخلاص من الشجرة، وهذا ما لم أذكره لأحد قط منذ خلقت، ولولا ما أرى لك من الفضل والكرامة مـا أخـبرتك بهذا كله.

(قال رحمه الله: هذا الذي وصف إبليس هنا بصدق جميـع مـا قلنـا مـن شـأن الهوى في النفس) .

قال يحيى عليه السلام: فالمسألة الخاصة التي سألتك، قـال: نعـم، سـل، قـال: هل أصبت مني فرصتك قط في لحظة من بصر أو لفظة مـن لسـان أو هـم بقلـب؟، قال: اللهم لا إلا أنه كان يعجبني منـك خصلـة فكـثر ذلـك عنـدي، ووقـع عنـدي موقعاً شريفاً، فتمعر[1] لون يحيى من قوله وتبلـد وتقـاصرت إليـه نفسـه، وارتعـدت فرائصه، وغشي عليه.

قال: وما ذلك يا أبا مـرة،، قـال: أنـت رجـل أكـول، وكنـت أحيانـاً تكـثر الطعام فتبشـم[2] منه ويعتريك الوهن، والنوم، والثقل، والكسـل، والنعـاس، فكنـت

---

(١) تمعر وجهه : تغير، وأصله قلة النضارة وعدم إشراق اللون .

(٢) البشم: قال ابن سيدة: هو التخمه وقيل هو أن يكثر من الطعام حتى يكربه .

تنام على جنبك أحياناً من الأوقات التى كنت تقوم فيها من الليل هذا يعجبني منك.

قال: وبهذا كنت تجد على الفرصة، قال: نعم، قال: ما أشد لفرحك، ما أشد لحر ذلك؟، قال: قد ذكرت لك فلم تحفظه، ولكن أحملك جميع ما يكره الله وهو مختاري، وجميع ما يحب فهو منبوذي، فإذا رفع الإنسان منبوذي لم أتمالك حتى أحتال بكل حيلة حتى تنبذه، وإن زين له مختاري حتى يرفعه لأن حياتي في استعمال مختاري، ومماتي وهلاكي وذلي وضعفي في استعمال منبوذي ومرفوضي وهو الحلال، والطيب من الأشياء والأحزان، ومختاري الحرام والخبيث من الأشياء والأفراح[1]، بها قد حظر الله عليك، قال إبليس: حسبك يا يحيى فرحاً بما أظهر ليحيى أنه قد وجد عليه ساعة فرصة .

قال يحيى: ولم تجد على الفرصة من عمرى إلا الذى ذكرت، قال اللهم لا إلا ذاك، قال يحيى: عاهدت الله عز وجل نذراً واجباً على أن أخرج من الدنيا ولا أشبع من الطعام، قال: فغضب إبليس، وحزن على ما أجزه، فاحترز يحيى واعتصم، قال خدعتني يا ابن آدم، وكسرت ظهرى. مما خدعتني حتى سلت المنى، وخرج من عنده غضباناً[2] .

---

(١) نقرأ في هذا عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ البقرة/٢٦٨، ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ المائدة٩٠ ، ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ النمل ٢٤ .

(٢) هذا الحديث الطويل لم نجده فى كتب الحديث الصحاح، وقد ورد فى إطار الحث والتوجيه والتنبه إلى مكائد الشيطان ومصائده، وبوسعك أن تقرأ عبارات من هذا الحوار بين إبليس ويحيى عليه السلام متناثرة فى كتب السلف .. لكن الحديث بجملته وتفاصيله لم نعثر عليه كاملاً .

باب: صفة جنود إبليس وبدء أمره وقصته ومصائده وتفسير هواه وحياته:

وأما أسماء المائة خلق التي سأل إبليس ربه وجعلها لجنوده، كما أعطى لآدم عليه السلام، فلما أعطى آدم المائة خلق، وقيل له: هذا جند من جنود الله استعملها على عدوك إبليس.

سأل إبليس ربه أن يعطيه أضدادها كي يحاربه بها، فأعطاها إياه، فجعل الهوى ملكاً، كما أن المعرفة جعلت العقل ملكاً، وجعل ما أعطى تابعاً له، وأعواناً وجنوداً، كما جعل العقل ما أعطى جنوداً وأعواناً .

باب صفة أخلاقه:

باب صفة أخلاقه وهي: الكفر، والجهل، والكبر، والحسد، والحقد، والمكر، والخدع، والغش، والغل، والخيانة، والعداوة، والكذب، والزور، والبهتان، والشر، والنميمة، والغيبة، والجبن، والمداهنة، والرياء، والسمعة، والهبل[1].

والبدعة، والصلابة[2]، والغي، والخيلاء، والغرور، والجرور، والظلم، والبغي، والهمن، وقلة المبالاة، والخفة، والطيش، واللعب، والعبث، واللهو، والسهو، والغفلة، والسرور، والفرح بالدنيا، والعجلة، والفظاظة، والغلظة، والخشونة، والعنف، والأنفة، والاستكبار، والفخر، والخيلاء، والتبختر، والحيرة، والكسل، والثقل، والعجز، والتأخير، والملالة، والخطا، والنسيان، والسهوة، والهمة، والوهم، والتشبه، والأمل، والباطل، والتيه، والسفه، والضحك، والحمق، والجذع.

---

(١) الهبل : قال الأزهري: اهْتَبل الرجل إذا كذب، واهْتَبَل إذا ثَكِل .

(٢) أي التصلب في الرأي، والتشدد في الأمور .

والكفران، وطلب العلق[١] ، وحب الدنيا، والأشرف[٢] ومحمدة الناس، والمدمة، والشبهة، والحرام والزينة، والحرص، والفحش، والقساوة، والشدة، والأشرف[٣]، والبطر، والقنوط، والشموخ، والبذخ، والختل والمدح، والتمنى، والتجبر، والنحوة، ومالتجسس، والغيرة والشكاية، والصلف.

فهذه الجنود التى أعطى وهى مائة خلق من أخلاق الهوى التابع له، وهم أعداء أخلاق آدم عليه السلام، فعدو العلم الجهل، وعدو الحلم الحمق، وعدو العقل الغى، وعدو العمل الكسل، وعدو اللين الخشونة، وعدو التأنى العجلة، وعدو اليقين الشك، وعدو الورع الفجور، وعدو الشكر الكفران، وعدو الصدق الكذب، وعدو الرفق العنف، وعدو الصواب الخطأ، وعدو الذكر النسيان، ثم على هذه الصفة إلى آخره.

فمتى استعمل الآدمى خلقاً من تلك الأخلاق، أبرز الهوى خلقاً من أخلاقها ليحاربه فهذه صفة الأخلاق وبيانها.

---

(١) طلب العلق: اى الهوى يكون للرجل فى المرأة . قال اللحيانى عن الكسائى: لها فى قلبى عِلْقُ حبٍ، وعلاقة حُبٍ، وعِلاَقَة حبٍ .

(٢) الأشرف: ربما يراد بها العلو والتعالى والتفاخر بالشريف كما تشير المعانى القاموسية للكلمة.

والإشراف يراد به الحِرْص، ويراد به الظلم كذلك قال ابن الأعرابى:

استشرفنى حقى اى ظلمنى.

(٣) تكررت الكلمة ذاتها هنا (الأشرف) ولعل هذا نسيان وقع فيه الكَتَبَة، وا لله تعالى أعلى وأعلم.

باب صفة القلب والنفس والصدر

رجعنا إلى ما كنا فيه من شأن القلب والنفس والصدر:

ومعسكرهما، وللقلب سبع مدائن، بعضها فى بعض بحيطانها وأبوابها وستورها، والملك فى أقصاها، وهو اللباب بجنوده، والصدر مدينة عظيمة حولها بمن فيه من المدائن والمجالس والمعسكر والمدد المعادن، والعقل معدنه فى الدماغ، ومسكنه فى الصدر بجنوده وحشمته وهو والى الملك أعنى المعرفة.

فالنفس مدينتان عظيمتان إحداهما فى الأخرى، إحداهما باطنة، والأخرى ظاهرة، أما الباطنة فدار حرب، والأخرى تابعة لمن غلب وتسلط واستولى فيها، صاحب مأوى، وهو الخناس[1] ، وطليعه تبعث الأخبار وهو الجاسوس، أعنى الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس.

كما وصفنا هذا أبدياً فى موضعه، والجوارح قرى حولها، وعلى كل واحد منها عامل، وإذا كان العدو مغلوباً مقهوراً والهوى مسجوناً كان الملك وهو المعرفة فى سلطان جارٍ، وملك وهيبة وجمال، وأمرنا فذ[2] مطاع وعز وشرف منوراً، قد سطع نور الجلال من لدنه إلى أقصى المدينة، لما بها حية طرية أعنى القلب.

---

(١) الخناس: فى الحديث الشريف (الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خَنَس) أى انقبض منه وتأخر .. والحاصل أنه إذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس؛ فإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يوسوس. قال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس.

(٢) فذ: فَدَ يَفِدُ فداً وفديداً: اشتد وطؤه فوق الأرض مرحاً ونشطاً.

ورجل فداد: شديد الوطء. قال ابن الأعرابى: فدد الرجل إذا مشى على الأرض كبراً وبطراً.

وكان المدائن حوله ساكنة مطمئنة قد انجلى عنها غم الهوى، وغم الضلالة، ودخان الشهوة، والعامل في عز وشرف وبهاء ورفعة منوراً، قد سطع نور الرغبة والطاعة، ونور الفرح منه إلى أقصى المدائن وقراها، وكانت المدائن مطمئنة ساكنة، وكان العمال بها مطيعة، والرعية في راحة، والخناس مقصور، والوسواس متجعد، والهوى مسجون، واللعين مدحور محسود.

وإذا غلب عليها العدو أخذها عنوة، وأصر عليها أميراً، ودخلت الجنود مع أميرها، وحشمه بظلمه ودنسه وشهواته وملاهيه وأباطيله وخدعه وأدناسه ولتنه ودخانه وغيمه.

قويت النفس وهو الهوى وحييت وتخلصت من السجن وعسكرت واستعمل عليها عامل، وعلى القرى عمال، وثبت ملكه إلى أن يأخذ مسكن العقل وموضع قضائه فيجعل عليه العقل بجنوده، وينصب الحرب بينهما فتثور من بينها عجاجة[1] سوداء، ودخان مظلم من نتن الهواء وظلمته.

فيظلم على القلب مسكنه، وهو الصدر، فيصر الملك ومن معه من الجنود في حجب من ظلماتها ودخانها.

فإما إن كانت الغلبة له عليها، وإما عليه لها، فإذا كانت الغلبة عليه انهزم العقل بجنوده من شدة الظلمة ولتنها ودخانها وضعف وأنزل وأخذ بمركزه ولجأ إلى ملكه وهو المعرفة بجنوده، مستغيثاً فزعاً. وتركوا الميادين، والمراكوز، وهوى الصدر، وأخذوه ونزلوا به، وكان الأمر أمر العدو، والسلطان سلطانه نافذ، أمر مطاع مشكور، المدائن ساكنة مطيعة، والقرى محمودة مرضية، والرعية مطواعة، والعمال في سعة والعدو فرح. واللعين مستبشر مباهي.

---

(١) العجاجة: من العَجَاجَ الدخان والعجاجة أخص منه. وعَجَّجَ البيت دخاناً فتعَجَّج البيت دخاناً فتعَجَّج: ملأه.

وكان الملك وملك الملك وهو العقل والمعرفة وجنودهما وحشمهما محجوبين مسجولين مقصورين مذللين، لا يجاوز أمرهما وسلطانهما ربض المدينة وهو القلب، فيجزع الملك من ذلك، ويحزن ويستوحش وينقبض وينزوى، فينجلى من القلب من نوره قدر الانقباض ولا يدوى، فيصير ذلك الموضع من القلب خالياً من النور.

فكلما كان سلطان العدو أجرى، وأمره أنفذ، كان الصدر أظلم، وكلما كان الصدر أظلم، كان الملك أحزن، وأوحش، وكلما كان الملك أوحش، كان انقباضه والزواؤه أشد، وكلما كان انقباضه أشد، كان سلطان نوره أضعف، وكلما كان سلطان نوره أضعف، كان القلب من نوره أخلاف ذلك.

أنه لا يصل إلى جوالى[1] القلب، وزوايا نوره؛ لانقباضه وضعف نوره، لوحشته الأحرى إلى المصباح في بيت واسع، فكلما كان سلطان السراج أشد، كان البيت أضوء وأنور وأسطع، حتى يجاوز وينفذ المساكن.

وكلما كان سلطانه أضعف، كان البيت أظلم، فليس له سلطان يسطع لظلمته ووحشته، فظلمة دخانه على الصدر، وعلى باب القلب، فإذا طال ذلك عليه وهو محبوس مسجون محجوب، قد حبسته غيوب جنود العدو ودخانها، منطوى سلطان نوره، مرضت المدينة أى القلب وصارت كسنة مقحوطة، قد منع عنها الماء فيبست أشجارها، وتغيرت ألوانها، فلم يزل مريضاً عليلاً حتى يموت.

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا

---

(١) الجُول: لُب القلب ومعقول.

وقيل: جُول القبر ما حوله، وفي حديث الأحنف: ليس لك جول أى عقل ماخوذ من جُول البئر بالضم وهو جدارها.

يكسبون﴾[1]. قال: الذنب على الذنب حتى يموت القلب، وذلك أن العدو إذا كان مسلطاً على المدائن، كان الأمر أمره، وكانت الرغبة مطيعة له، فكلما أمر أمراً أطيع، فذلك كسب ودين على القلب وانقباض، فإذا ظهر الانقباض منع الماء، فإذا منع الماء عن المدينة، ظهرت في ألوانها وأشجارها الشدة واليبوسة، حتى إذا كان ذلك، وكثر؛ مات القلب.

وذلك أن الروح ضعفت وكذلك البدن، ألا ترى الإنسان إذا نام ومرض أو عفش عليه، لا يمكنه التحرك ولا القيام والروح فيه لم ينقص منه، فكذلك القلب إذ انطوى سلطان النور وانقبض، ضعف القلب ويبس، وكذلك الشجر إذا منع عنها الماء مرضت حتى تيبس.

فالنور للقلب كالماء للشجر وكالروح للشجر، ومنه سمي يحيى، يحيى لأنه لم يعص ولم يهمّ بمعصية،[2] وذلك أنه لم يعمل عملاً يظلم عليه وحجبه فتستوحش منه المعرفة فيقبض، فيُطوى نوره وينجلي من القلب قدره من النور فييبس ذلك الموضع منه، ومنه قوله: "لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين)[3] أي من قلبه كله

---

(١) سورة المطففين: آية ١٤.

والرين يعتلي قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت) فذلك قوله تعالى ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

(٢) إذا كان مراد الشيخ هنا يحيى عليه السلام فهذا كلام جدير بالقبول؛ ففي تفسير قوله تعالى ﴿وسيداً وحصوراً﴾ أن النبي ﷺ قال (كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين).

(٣) سورة يس: آية ٧٠.

حتى بنور المعرفة لسطوعه عليه، ليس ثم من يحجب نوره أو يظلم عليه فينقبض؛ فينجلي عن القلب قدره من النور.

رجعنا إلى ما كنا فيه:

فإذا طال ذلك على الملك شكا إلى الله طول ما يلقى، فإمّا أنه يؤيده حتى يهزم العدو ويستولى على العصاة ويقهر جنوده، وإما أن يغضب فيلعن فإذا غضب فلا بدّ من إحدى أربع.

إما أن يسلب المعرفة ويقفل على قلبه.

وإما أن يُطبع على قلبه[١] .

وإما أن يجعل عليه غلافاص، وإما أن يختم[٢] عليه، ومن ذلك قول تعالى: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾[٣] وقوله: ﴿ولطبع على قلوبهم﴾[٤] . وقوله : ﴿قلوبنا غلف﴾[٥] وقوله: ﴿ختم الله على قلوبه وعلى سمعهم﴾[٦] .

وأشدها الختم. فإذا أسلب المعرفة عمي وصم وبكم، وذلك أن القلب قالب المعرفة، كما أن البدن قالب الروح.

فالبدن ناطق سامع بصير ما دامت الروح فيه، فإذا خرجت الروح صمّ وبكم وعمي، والقلب إذا خلا من المعرفة عمي وصمّ وبكم؛ فذلك قوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[٧].

---

(١) الطبع على القلب والختم على القلب بمعنى واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء.

(٢) الختم على القلب أي لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيءٌ كانه طُبع.

(٣) سورة محمد: آية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف : آية ١٠٠.

(٥) سورة البقرة: آياي ٨٨.

(٦) سورة البقرة: آية ٧.

(٧) سورة البقرة: آية ١٨ ونص الآية الكريمة هو ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ وليس يعقلون."

موت القلب:

وللقلب موتان: موت خروج النور، وموت ضعف سلطان النور والمعرفة فيه كما ذكرنا.

فنعوذ با لله من الخذلان، ونسأل ا لله أن ينصرنا على عدونا نصراً عزيزاً، ويجعله ذليلاً مقصوراً، كما هو محسور مدحور، ويجعلنا ممن يتخذه عدواً كما هو عدو، وأن نتعظ ونذكر بما وعظ ربنا، وحذرنا في تنزيله فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾[1].

وقال: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾[2].

وقال: ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾[3].

وقال : ﴿لا تعبدوا الشيطان إن لكم عدو مبين﴾[4] .

﴿وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[5] .

وقال: ﴿ أفلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم با لله الغرور﴾[6] "وقال الشيطان لما قضى الأمر إن ا لله عز وجل وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم"؛[7] وقال ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء وا لله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾[8].

---

(١) سورة فاطر: آية ٦.

(٢) سورة الممتحنة: آية ١.

(٣) سورة النور: آية ٢١.

(٤) سورة يس: آية ٦٠.

(٥) سورة يس: آية ٦١.

(٦) سورة فاطر: آية ٥.

(٧) سورة إبراهيم : آية ٢٢.

(٨) سورة البقرة: آية ٢٦٨.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل مغفرته وعدته، إنه كريم، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

قال الله عز وجل: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا﴾[١] فالبلد الطيب النفس المطمئنة، يريد التى غلب عليها ماء الرحمة والملك بأعوانه فاستولى عليها، وقهر العدو والنبات والثمرات وهى الأعمال، وقوله: ﴿والذى خبث لا يخرج إلا نكداً﴾. والذى خبث أى ما غلب عليها السبخة[٢] والعدو فاستولاها لا يخرج ثمراتها أى أعماله إلا نكداً[٣].

فالقلب مستقر ماء الرحمة، ومعدن نور العطف، والمعرفة، والنفس أرض ميتة ذات سباخ، والجوارح الأشجار، وما يخرج من الجوارح من الأعمال الحسنة الثمرات.

فمتى ما كانت السبخة فيها ذائبة متلاشية كانت أنهارها تجرى بمياهها من المستقر إلى أشجارها، ومن المستقر إلى المدينة، وهى النفس سبعة أنهار، ومن المدينة إلى الأشجار سبعة أنهار، على كل نهر أنهار شتى ما بين صغير وكبير.

قيل له : ما السباخ التى ذكرت؟ قال: نصفه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

فإذا كانت أنهارها جارية صافية كانت المدينة ساكنة طيبة مطمئنة، والملك عليها أميراً فرحاً مستبشراً، وأشجارها غضة طرية موفقة مزهرة، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، والأكل الثمرات.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٥٨.

(٢) سبخت السَّبَخَةُ: الأرض المالحة. والسَّبَخُ: المكان يَسْبَخُ فينبت الملح وتسوخ فيه الأقدام.

(٣) النكد: الشؤم واللؤم ورجل نكد أى عسر، وجاءه منكداً أى غير محمود المجئ.

فإذا ظهرت السباخ فى أنهارها، وغلبت عليها، غلبت الماء وامتزجت به، فإذا لم يجر الماء فى أنهارها نشفت أشجارها، وتغيرت ألوانها، وانقبضت وانزوت أوراقها واصفرت وتناثرت، وسلبت منها الطراوة، ولم تخرج ثمرتها إلا فى كدٍ وشدة.

وما أخرجت من بين مرٍ وحامض وحلو لغلبة السباخ عليها وامتزجها بماء الرحمة، فإذا دام ذلك، وطال تكدرت المياه كلها وغارت وتلاشت، وذاب سقناها من ذلك الشين فسدت عروقها وغفنت وتيبست أشجارها أصلاً وفرعها، فلم تثمر ولم تخرج، ولم تنور فحينئذ يغضب الجليل؛ فيحظر عليها ويسد أفواه أنهار القلب.

فلم يجر إلى المدينة فخرجت المدينة ومن فيها وماتت ثم سلب ماء الرحمة من القلب وحرم وتيبس القلب وقسا فمات فخرب القلب، وخربت النفس ويبست الأشجار وصار كما قال الله تعالى ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[١].

قال: وإذا مات القلب وماتت النفس ويبست الأشجار أثمرت الشوك وهو الكفر والشرك، وذلك أن السَّبخ هى أصل النفس وجوهرها وخلقتها وهى الهوى، والهوى من الكفر، وذلك أنه من الهاوية، فإذا فرغ ماء الرحمة من مستقره، وسلب أبدل مكانه فصارت الأنهار تجرى بمياه الكفر، وصار سقياها من ماء الكفر، فإذا جرت المياه من الماء الكفر، أثمرت ثمرات الكفر والشرك، كما قال الله تعالى: ﴿والذى خبث لا يخرج إلا نكداً﴾[٢].

فالبلد الطيب النفس إذا كانت قد غلب عليها ماء الرحمة وجرى فى أنهارها

---

(١) سورة المائدة: آية ١٣.

(٢) سورة الأعراف : آية ٥٨.

فصارت حية طيبة، وصارت أشجارها طرية غضة مونقة، فإذا أبدل مكانه ماء الكفر خبث والذى خبث لا يخرج إلا نكداً أى خبيث تغلبه السباخ عليه فى أنهارها، فتشكت أشجارها لما نزع ماء الرحمة أبدل الكفر .

قيل: وما أصل السباح؟ وكيف أصل خلقتها، وبدور أمرها، وغلبتها على الماء فى أنهارها وبين لنا.

قال: إن النفس الباطنة من موطئ الشيطان وتحت قدمه، وأما النفس الظاهرة فمن بين خطوته وبين موطئه، وهى مهدودة مبسوطة من النفس الباطنة، إذا كانت الخلقة هى الأس والبينة فهى كالقائمة الظاهرة، والظاهرة محدق[1] عليها مركبة مغرورة فيها.

فلما عرف اللعين ذلك كله من نفس آدم، علم أنه سيظفر به إذا احتاج إلى ذلك، إذ وجد نصيبه فيه قائماً، فلما أمر بالسجود نظر فوجد نصيبه فى آدم وهو النفس، فأبى ذلك وتكبر.

ووجد اللعين ذلك فى نفسه من نفسه فاتفقا فأبى وعتا وتكبر، فلعن وطرد، فلما أسكن آدم الفراديس تفكر اللعين فى أمره وأمر آدم، إذ لعن فى جنبه فهاجت من إبليس بحور الحميد بمياهها وإن بدت وامتدت، فسالت منها عليه أودية فاغترف من ذلك بالقياس والحيلة على ما يغض به على آدم ما نال من النعم وبما سلبه تلك الكرامة وبما يهلكه.

فاغتنم بالشجرة التى نها الله آدم عنها، فاحتال حتى وجد عليه الفرصة من ذلك الوجه، فلما قال آدم ما قال، وأشار عليه بالأكل، تفكر آدم فى نفسه،

---

(١) الحدق: المعنى الذى يساير السياق هنا هو، حذق الخل يحذق حذوقاً: حَمُض .

فهاجت منه مياه النور والرحمة والعلم، وامتدت فاعترف آدم منه بالحكمة والنظر والتدبير بالأخذ إلى ما أشار بالانتهاء عنه، وكان مرة يأتي على قلبه أن لا، ومرة أن أدن.

فانتهى آدم يشاور في ذلك، فسبق اللعين إلى القسم بالغرور، وتصديقاً على ما أتى على قلب آدم عن الدنو، إذ كان ذلك من النفس الباطنة التي هي من موطئ اللعين، فحرصه عليه وندبه إليه ورد ما أتى على قلبه من الانتهاء، وذلك أن الذى نهاه عن ذلك كان الحكمة والعلم، والذى ندبه إلى الأخذ كان من النفس الباطنة موافق اللعين، وكان سأل ربه أن يعطيه السلطان ليجرى فيه مجر الدم فى عروقه، فأعطاه مالا اذ كان موطؤه فى آدم قائماً وهو النفس، إذ سأل ربه المجرى فى دعوته، والسبيل إلى حقه، وهو أصل خلقه آدم، إذ جهل فى أثر تراب قدمه وموطئه، فصار ذلك وراثة في ولده، فهو يجرى منهم مجرى الدم، ومن ذلك حرّم الدم المسفوح[1] لما يجرى اللعين.

والدم فى مجرى واحد فى العروق، وذلك أن اللعين نجس، فينجس الدم الطيب فى العروق والطيبة بنجاسته بجريهما جميعاً معاً فى مجرى واحد، فإذا أراد اللعين أو بعض أعوانه أن يدنو من بنى آدم وجدت النفس الباطنة ريحة فعرفته، فإذا دنا منهما أحست أثره وعلمت أنه قد دنا، فرحت وابتهجت، فأشرأبت شوقاً إليه، إذ لقى بعض العضو وبعض عضو والحب جنه فاهتشت لرؤيته، وابشت[2] بلقائه،

---

(١) الدم المسفوح: قال عكرمة فى قوله تعالى (أو دماً مسفوحاً) لولا هذه الآية لتتبع الناس ما فى العروق كما تتبعه اليهود .

(٢) البش: اللطف فى المسألة والإقبال على الرجل والبشاشة: طلاقة الوجه . وفى حديثى على رضى الله عنه: اذا اجتمع المسلمان فتذاكرا غفر الله لأبشهما بصاحبه .

وازدهرت للدنو إليه.

ودخل الشيطان يجرى فى العروق فعرق من شدة السرور والابتهاج والدليت فى ضيق المجارى، فامتزج عرقه بماء الرحمة الذى يجرى فى مجارى العروق، وتلطخت نجاسته فى مجارى عروقه، فتكدرت المياه والدم من نجاسته وعرقه وجربه ودخانه وظلمته، وكثرت وامتدت.

فكلما كان جريه فيها أدوم وأدب، كانت العروق بما فيها من مياه الرحمة أكدر وأثمل حتى ينكدر وتحمى وتفور من ضيقة الأنهار وهى العروق، فإذا طارفه[1] – لكّ فيها ودام[2] ، واوندت[3] وأحمدت واستحت وسعلت[4] الكدورة[5] والنقل. فسدت أفواه المجارى، وأينعت من كثرة الكدورة وشدة السباخ والزبد، وحسنت العروق. فلم يجد الماء نسل إلى المجرى فركدت بأجمعها.

وإذا ركدت واجتمعت المياة وفارت فوق الصفة فاصابت السباخ والزبد الذى على الصفة وامتزجت بها.

فإذا طال بها ذلك ودام، وانكسرت التبوق[6] والسدد[7] من كثرة الماء،

---

(١) طارفه : قاتله، وأغار عليه .

(٢) لكَّ : ازدحم .

(٣) أرند : طابت رائحته .

(٤) سعل : نشط .

(٥) الكدورة : جعله كدراً .

(٦) التبوق: لم يرد لها معنى فى قواميس اللغة جميعها .

(٧) السدد : لعله يريد بها السدود وإنما وقع التصحيف من الكتبة، والسياق يرجح ذلك .. والسد : الرَّدم لأنه يُسد به والسُّد والسَّد: كل بناء سُد به موضع .

وتطرقت فذهبت حفائرها وسحنها، فإذا جرت إلى الأشجار اصفرت الأوراق ويبست الأشجار، وانزوت الثمرات، ومرّ الحلو الطيب، وزبلت الطرية الغضة وانقنضت، وفسدت وزبلت المزدهرة المونقة، وشاكت الأشجار بما فيها من سلطان الهوى والكفر.

وذلك أنها إذا طال ذلك بها، ولم يعالج صاحبها اصلاحها بالمجاهدة على إخراج اللعين وطرده، غضب الجليل - سبحانه - على صاحبه فسلبه ماء الرحمة، ونور المعرفة، وأبدل مكانها الكفر، فتجرى مياه الكفر والهوى مع اللعين في المجارى، فإذا جرت إلى الأشجار شاكت الأشجار من سلطان الكفر، وأثمرت الأعمال السيئة، ولم يخرج النافع إلا نكدا كما قال الله تعالى.

قيل له: وهل تخرج الأشجار التى تشوك النافع ؟

قال: نعم، ألم تر إلى الكافر وما يجرى عليه من الأعمال الصالحة. آخر كلام الغور والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين.

من كلامه في الذكر[1]: إذا نطقت الألسن بالذكر ظهر ثناؤه، وذكر محاسنه وصنائعه، فصعد هذا الذكر إلى الله - عز وجل - فوقفت أنوار الذكر بين يديه كالشفعاء لقائله فعندها يذكر الله - تبارك وتعالى - عبده بما يقربه إليه.

فيظهر من الرب تبارك وتعالى للعبد ذكر بالنظر إليه في جميع أموره، فيشتمل ذلك الذكر من الله جل ثناؤه على سيئات العبد.

لأن الرب إذا ذكر عبده فإنما يذكره بالثناء عليه، فلذلك الثناء من الله عز

---

(١) من كلام الناسخ .

وجل – على سيئات العبد، لأن الرب إذا ذكـر عبـده، فإنما يذكـره بالثناء عليـه، فذلك الثناء من الله – عز وجل – يشتمل على مساوئ العبد فنشهرا حتى تـذوب تلك المساوئ فـي حريـق ذلـك الحب، اذ قـد تضمنـه ثنـاء الـرب تعـالى، وتقـدس وتلاشى، فهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، قـال الله تعـالى: ﴿واذكـر ربـك إذا نسيت﴾[1] فجعل ذكر الحادث عوضاً عن الغائب في ساعات النسيان، ومستدركاً له، وهذا العظم حرمة الذكر، ودفع مرتبته .

من كلامه رحمه الله: قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسـن ابن الحكيم الترمذى، قدس الله روحه[2] ، حدثنـا صـالح بـن عبـد الله قـال: حدثنـا يوسف بن عطيه عن ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال يومـاً: هل تدرون من المؤمن؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المؤمن من لا يموت حتى يمـلأ مسامعه ما يحب، ولو أن عبداً إتقى الله في جوف بيت الى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد، ألبسه الله رداء عمله. وذكر الحديث.

وكان ثابت اذا حدّث بهذا الحديث يقـول: بلغنـي أن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم كان يقول : (نية المؤمن أبلغ من عمله)[3] .

قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد الوهـاب بـن همـام الحميرى سمعت أبـي وهـو يحدث عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أفضل العمل؟ قال: النية الصادقة".

---

(١) سورة الكهف / الآية ٢٤ .

(٢) من كلام الناسخ .

(٣) الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك وراويته (نية المؤمن خير من عمله) وهـو حديث ضعيف وفي رواية (أفضل العمل النية الصالحة [illegible] عن ابن عباس رضي الله عنه.

وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما معنى نية المؤمن خير من عمله؟ قال: لأن النية لا يكون فيها رياء فهدرها.

قال أبو عبد الله: ووجدنا من طريق الاعتبار عندما ميزنا بين النية والعمل، أن العمل منقطع والنية دائمة، وتصديقه في حديث ثابت عن أنس: والعمل علانية، والنية سر.

وتصديقه في حديث عطاء، والعمل في السر مضاعف، والعمل سعي الأركان إلى الله وإليه سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود، ولا يستوى سعي الملك وسعي جنوده، والعمل يوضع في الخزائن، والنية عنده لأنه الذكر الخفي، والعمل موقوف على نهايته، والنية لا تحصى نهايتها، والعمل تحقيق الإيمان وإظهار النية تصديق الإيمان بمنزلة الشجرة.

لأن الشجرة خشبة منصوبة، فبظهور ورقها يكون هي شجرة وليس الورق، إنما هو زينة الشجرة، والشجرة من الفرع، والفرع سكناه من الأرض.

وذلك قوله تعالى في كتابه: ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾، فالأصل هو الإيمان الذى في القلب، والنية هي فرعها في السماء، والعمل هو الأكل، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والعمل موكل بها الحفظة، والنية لم تطلع عليها الحفظة، والعمل في ديوان الملائكة، والنية في ديوان الملك، والعمل الواحد لا يعد، ونفس ذلك العمل، ولا ينتظم غيره.

وبالنية تنتظم الأعمال، والعمل ثوابه من درجات الجنة، والنية ثوابها من منازل القربة، والعمل أجناس لا يشتبه بعضه بعضاً، ولا يقدر العبد أن يعمل عملاً ينتظم جميع الأعمال، والنية تشتمل على الأشياء، وذلك إذا نرى بلوغ مرضاته، ومرضاته جميع الطاعات، فهو في ذلك الوقت كأنه قد أخذ بعروة الطاعات كلها،

فهو كالعامل لجميع الطاعات.

وهذه النية كلها للصادقين من عمال الله، يحتاجون إلى نية في كل أمر لأن قلوبهم مع الأشياء، فيحتاجون إلى أن تتسوق إلى الله عند مبتدأ كل أمر، وكذلك جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما الأعمال بالنيات)[١] ولا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، وأصل النية من طريق الإعراب هو النهوض.

يقول: فاستوى، أى نهض ينهض، فإذا كان القلب في حبس النفس، فإنه يحتاج إلى النهوض إلى الله عند كل أمر وهو الإرادة والقصد إليه، وإذا تحت[٢] لأى القلب من حصار النفس، فصار إلى الله وتعلق به وحيابه.

فمحال أن يقال: نهض إليه لأنه عنده، ولا يحتاج إلى نية هو في كل أموره عند ربه بقلبه. فقد سقط عنه هذا النظر، وهذا عنده محال بعد أن استقام إلى الله قلبه عبودة، وقام بين يديه في درجة القربة، فهذا دائم له في كل حال.

قال أبو عبد الله رحمه الله - وجدنا الذكر على ضربين، ذكران ذكر الهوية بلا كيف فيفرق فيه الدنيا والآخرة والنفس والملكوت وملك الملك فتأخذه البهتة[٣]، فهذا ذكر العارفين.

وأما ذكر الموحدين فهو أن يذكر من الهوية الألوهية فقط، والنفس شهواتها جاثمة على القلب كالفحل المغتلم[٤] الذى يهدر ويضرب بأنيابه الذى يجثم على

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) تحت : تحرك - لأى : الإبطاء والاحتباس: ويراد به كذلك المشقة والجهد .

(٣) البهت: الانقطاع والحيرة، رأى شيئاً فبهت: ينظر نظر المتعجب وفي التنزيل الحكيم ﴿فبهت الذى كفر﴾ البقرة ٢٥٨ ، أى انقطع وسكت متحيراً عنها .

(٤) المغتلم : العظيم .

الإنسان فيدوسه تحت ميسمه[1] في التراب بالأرض – فمن ذكر لا يجد على قلبه إلا ذكر الألوهية، ثم يغفل عنه، ولا يجد ذكره عند كل أمر أو حكم حال الأشياء بينه وبين ذلك، ولم يكن لذلك النور من السلطان ما يحرف[2] عن قلبه جميع الأشياء فتجده ذاكراً غافلاً مطيعاً عاصياً ومقبلاً لاهياً، فهذا أحد الطرفين.

والطرف الآخر: أن ينقلب القلب من جثوم النفس عليه ويخرج من آثارها فيجد فسحة وروحاً، ويتمكن، ويتمدد، ويتنحنح[3] فيما ورد عليه من العطاء منة من الله على عباده، ودولة من السعادة ظفر بها، ورحمة منه أدركته.

فلم تزل المنن تتابع عليه بالأنوار هداية من الله وعوناً على سيرة إليه ووفوداً به إلى بابه، حتى جاوز الأشياء إلى خالق الأشياء، وجاوز الملك إلى مبدئ الملك، فوصل إلى ذكر هويته. فغرق فيه قلبه مع الأشياء كلها.

فالموحدون أخذوا بالطرق الذى ذكرناه بدءاً، والعارفون أخذوا بهذا الطرف وهو ذكر واحد، ومعرفة واحدة، ثم ضم كل ذى روح بدت على الأرض في الكفالة فدخل الدواب والبعوضة والحميان والقردان والخنفساء والبغلان والقردة والخنازير.

فكلهم داخلون في كفالته، ثم قال في كتاب مبين أى أنه أبرأ القلب، فأبان في الكتاب أى أظهر من الغيب في الكتاب، والكتب في لغة العرب النظم، والنظام

---

(١) الميسم : المشى فى الأرض.

(٢) حرف: مال . قال الأزهرى: وإذا مال الإنسان عن شئ يقال تحرف، وانحرف، واحرورف .

(٣) النحنحة: صوت يُردده الرجل في جوفه. قال الأزهرى عن الليث، النحنحة التنحنح وهو أسهل من السعال، وهي علة البخيل، الذى إذا سُئل اعتل كراهة للعطاء. فردد نفسه لذلك .

الكتاب، واللوح يلوح بأقدار الله ومشيئته وعلمه.

فنظمه وأثبته ثم أظهره فلاحاً الملك الذى هو موكل برفع نسخة قصة العبد بخلقه ورزقه وسعيه وأجله فاستنسخه وناوله السفرة الكرام البررة. فهم يمسكونها فى السماء حتى يظهر على العبد فى الأرض، وكل به الحفظة الكرام الكتبة.

حتى إذا كان يوم البروز إلى الله فى العرض على الله، نشرت الصحف، وهو قوله: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾[١] الى قوله : ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾[٢] فكشطت السماء أى نزعت، وظهر العرض، وبرز الديان، وظلل الغمام، ووضعت الجنة على اليمين، والنار على الشمال، ثم نُشرت الصحف، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد بما كسبت، معلقة صحيفته على عنقه، وتلك الصحيفة التى كتب عليه الحفظ، وهو قوله: ﴿وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾[٣].

فهذا كتاب الحفظة، ثم قال: ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾[٤]، فهذا كتاب السفرة، ثم قوبلت هذه التى أحصتها الحفظة بالتى كانت فى أيدى السفرة المنسوخة من اللوح، فلا يوجد فيه زيادة حرف، ولا تقديم حرف، فاحكم تبارك اسمه شأنه فى الرزق على هذا العبد إيجازه الحجة عليه، وتفريغاً لقلبه، وإخلاءً لصدره عن الوسواس، لأن لا يكون للعبد عليه حجة يوم القيامة عند مطالبته بالعبودة أن يقول: شغلنى رزقى ومعاشى وضرورات.

---

(١) سورة التكوير / الآية ١٠ .

(٢) سورة التكوير / الآية ١٤ .

(٣) سورة الإسراء / الآية ١٣ .

(٤) سورة الإسراء / الآية ١٣ .

ثم عرفه من أسمائه العقيل، والوكيل، والحسيب، والكافي، أخرجه من بطن أمه على تركيب اضطره إلى معرفة الرزق ما هو، فإنه جعل من تحت يده مرتزقة مرزقهم ويغذوهم وعرفهم شأن الكفالة كيف تكفل واقتضهم بعضاً.

وشأن الوكيل كيف يتوكل بعضهم لبعض، والكافي في الأمور كيف يكون، واقتضته معرفته هذه الأشياء. ليكون هذا دليلاً على كفالته، ووكالته، وكفا فاتسع صدره وتفسحت همه وقدر على التفويض إليه، وترك التدبير والاهتمام والاختيار.

ولو كان ممن لم يسكن على قلبه هذه الأسماء استناه أهل اليقين، لم يقدر أن يفوض إليه ولا يسكن في شأن الرزق إليه.

ثم عرفه من أسمائه الرحيم، ووضع في قلبه الرحمة. فإذا استعمل تلك الرحمة على عبده فرأى حسن موقعه منهم، استبان له أن الرحمة التي وضع في قلبه أين تقع من رحمته، فعلم حسن موقع عبيده الموحدين منه.

ثم عرفه من اسمائه الكريم، ثم وهب له في خلقه كرماً فعرفه عند استعماله ذلك مع عبيده أن الخلق قد غرقوا في كرمه، ثم عرفه الحنان المنان فعرفه في تحننه ويده وعطفه على خلقه أن المؤمن منين[1]. ظفروا بالإيمان بتحيته ومنته، فهذهالأسماء التي أبرزها لأهل معرفته جعلها تقويماً للخلق في نوابيهم[2] وأخلاقهم وهديهم إليه.

فإن أردت شرحها على الاستقصار، احتجت إلى عمر طويل أكثر من عمر

---

(١) منين: كثير الامتنان للنعمة التي تلحق به .

(٢) نوابيهم: نوبتهم ورجوعهم .

الدنيا من أولها وإلى قلب ذكي، وإلى فؤاد فارغ، وصدر خال، وذهن صافي، وفهم لطيف وروح ظاهر، وأركان قوية حتى يبلغ من الاستقصاء بعضاً، وإنما أعني مستيقصي منتهى العباد. ومبلغهم هيهات هيهات، كيف يستقصي مالا نهاية له وقال عز وجل - ﴿قل لو كان البحر مداداً لكمات ربي﴾[1] الآية، ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾[2] .

وصف المنفردين:

مسئلة في وصفي المنفردين : سألت عن الرجل، يعبد الله على طلب الثواب والفرار من العقاب، أفرض هو؟

فالجواب في ذلك: أن الله جل اسمه افترض على عباده الرغبة في ثوابه، والفرار من عقابه. فدعاهم إلى دار السلام. ثم افترض الإجابة، فقال: ﴿يايها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول اذا دعاكم لما يحييكم﴾[3] وحذرهم العقاب في دار السخة[4] ، وافترض الفرار منها فقال ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾[5] . وقال: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾[6] .

واعلم أن الله تعالى خلق عبيداً له ثم افترض عليهم أن يكونوا عبيداً كما خلقهم، فالثواب لهم على ذلك والعقاب على تضييع ذلك.

---

(١) سورة الكهف / الآية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان / الآية ٢٧ .

(٣) سورة الأنفال / الآية ٢٤ .

(٤) السُّخة : الطين اى الدار الدنيا .

(٥) سور آل عمران / الآية ١٣١ .

(٦) سورة التحريم / الآية ٦ .

فإذا كان يوم اللقاء ففريق فى الجنة، وفريق فى السعير، فأما أهل جنته وعبيد فى هيئة الأحرار والملوك، شأنهم مطردة فى جوار الملك المنان بفناء عرشه.

وأما أهل ناره فعبيد فى هيئة الإباق[١] المأخوذين فى حال إباقهم، أبدانهم معذبة حول السخطة فى سجن الملك الجبار، فأنبأهم لماذا خلقهم فى تنزيله، فقال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[٢] .

وقال: ﴿فإياى فاعبدون﴾[٣] .

وقال: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين قبلكم لعلكم تتقون﴾[٤] .

فحمد العبودية هو ترك الهوى، وهو مركب فى النفس مستعمل فى كل الأمور دنيا، وآخره، فصارت العبودية على ضربين: أحل وحرم، وأمر ونهى، فانتهى العبد عما نهى وإلى ما أمر، وباشر ما أحل، وجانب ما أمر، ولم يفارق الهوى.

فإن أتى ما أمره أتاه مع الهوى، وإن انتهى عما نهاه، فلم يملك العباد الذين نفوسهم حية، وشهواتهم ذكية إلا هذا.

وقد قال: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾[٥] . فخلقهم وهو الذى ركب

---

(١) الإباق / الهاربون .

(٢) سورة الذاريات / الآية ٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت / الآية ٥٦ .

(٤) سورة البقرة / الآية ٢١ .

(٥) سورة البقرة / الآية ٢٨٦ .

فيهم هذه الشهوة فهوت بهم يميناً وشمالاً، فوقعوا في التخليط والمعاصي، فلما أدركتهم رحمته، وجاءتهم نصرته، تابوا إليه، فوقعوا في العبودية.

فالشهوة باقية فيهم، إلا أنها ضعيفة، وخمدت نيرانها، وانطفت شعلها، وتضمنتها جوارح العبد، فصارت كحجرة قد غشاها الرماد، فلم يبق في العروق والجوارح حرارة من الشهوة، فصار الضوء كتنور قد سكن وخمد تسعره، فلم يزل هكذا يصير جمره رماداً حتى برد، فإذا ألزق به رغيف سقط، ولم يلتزق به، ولم ينخبز.

فكذلك الصدر إذا برد من حرارة الشهوة، فكلما مر به ذكر شئ مما نهى عنه سقط، ولم يلزق به، فكلما كان التنور أحمر كان الشئ به ألزق، ونصحه أسرع في العبد خمدت نيران شهواته بالنور الذى ورد على قلبه فظفر بالتوبة.

وذلك النور من رحمة الله على العبد، وللرحمة روح وبرد حيثما حلت انطفت النيران، إذ كانت هذه التنور من الشهوة مورد غداً نيران العقاب، فإذا انتهى العبد عما نهى، وأتى ما أمر، واستمر في ذلك لم يخل من شهوة تهوى به، وهو الذى يقال له الهوى، فإن أتى ما أمر، وكان ذلك الأمر موافقاً لشهوته خف فيه، وإن كان مخالفاً لشهوته ثقل عليه، وأتاه بكرة، وإن انتهى عن شئ، وكان ذلك النهى موافقاً لشهوته. خف عليه الإنتهاء، وإن كان مخالفاً لشهوته ثقل عليه الإنتهاء.

فإنما عملت فيهم هذا العمل هذه الشهوة الباقية فيهم، فعلم الله هذا منهم قبل أن يخلقهم أذكرهم على ذلك، فخلق دار النعيم والكرامة، ودار البؤس والهوان، وافتنا خبر ذلك على ألسنة الرسل فيهم ليهيج من نفوسهم التى فيها هذه الشهوة، وهذا الهوى شهوة تلك الدار، وتميل بأهوائهم إليها.

فإن قال العصاة غداً محتمين بمزيدته يا ربنا إنك ركبت فينا هذه الشهوات

وهذا الهوى الذى هو أخذنا لما حرّمت.

كان من حجته عليهم أن يقول: قد خلقت داراً فيها من النعيم ما يتلاشى هذا فى جنبها، ثم أرسلت خبر ذلك على ألسنة الرسل ليهيج من نفوسكم التى منها سكون رغبة وشوق إلى هذا الدار، فإن كانت تلك حاضرة نظر أعينكم، وهذه غايته إلى آخره فقد جعلت بينهما من التفاوت فى البون مالا يحصيه البشر علماً، فكيف لم يهتج من نفوسكم الشهوة إليها والرغبة فيها، ولم تطف شهوتها تلك شهوتكم لهذه الدنيا، ولم تتقد فى أسماعكم إشاعة هذه الأخبار من الدارين على ألسنة الرسل ولم ينجع فى قلوبكم.

فإن لى عباداً حضروا هذا الجمع وهم معكم، أنجع هذا الخبر فى قلوبهم، فرفضوا عامة دنياهم رغبة فيها رغبتهم فيه، تصديقاً لى لما أخبرتهم. حتى أسهروا ليلهم، وظمأوا نهارهم، فضلا عما أمرت، وتركوا ما لم آلفهم عنه أيضاً رغبة فيما عندى.

وقد كان فى تركيب أهوائكم وشهواتكم أنكم كنتم إذا ترىا لكم شئ من عرض الدنيا وحطامها الفانية رفضتم ما بأيديكم طمعاً فى نوال الزيادة.

فلو أن أحدكم قيل له: أرفض هذا الدرهم الذى فى يدك، وخذ ديناراً إلى سنة، وكان ذلك الضمان من الصادق الملئ[1] الوفى التسارع الى ذلك – وقال إنه ليهون على رفض درهم لمكان دينار أطعمنى فيه فلان الملى الوفى ضمن لى ذلك، وشهوة هذا الدينار غلب على شهوة الدرهم، وعرفة منه شهوة الدرهم، فهذه معاملتكم أيام دنياكم فى كل شئ، فما بالكم لم ترفضوا شهواتكم التى حرمت عليكم؛ من أجل هذه الشهوات الباقيات التى بان تفاوتها أبعد من العرض إلى الثرى.

---

(١) الملى : الثقة الغنى .. وتكتب بالهمز، وبدونها مع تشديد الياء .

فقدم عمال الله غداً على الله عاملين له على هذا، ساعين إليه على هذه الرؤية، أجابوه إلى ما دعاهم إليه من جواره بالطاعة التى رسم لهم[١]، وقال: ﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[٢]، ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾[٣].

فاتقوا عقابه الذى أمرهم بتقواه فقال اتقوا النار، عملوا الطاعة وشهوة الثواب قائمة بين أيدى قلوبهم عليها، يعملون، وإليها يسعون. وانتهوا عن المعصية، ورهبة القلب منتصبة بين أيدى قلوبهم، ومن أجلها ينهون، ومنها يفرون فشغلت قلوبهم نفوسهم بها، ومصيرهم إلى عقابهم، فغدو على ملك غفور كريم، يغفر الذنوب، يتجاوز عن التقصير، ويقبل الحسنات، ويعفوا عن السيئات ، فإن شقى جد أحد منهم ، وأبسله[٤]

---

(١) كلام الشيخ رحمه الله يدور حول معنى حديث شريف، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره) وبرواية أخرى (حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره) ومعناه أى جعلت الشهوات التى حظرها الشارع حجاباً للنار، فمن هتك الحجاب ومزق حرمته ارتكاب تلك الموبقات كان ذلك سبباً لاصطلائها، وذوق عذاب الحريق، ومعناه لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، ولا يوصل إلى النار إلا بارتكاب الشهوات، وكذلك هما محجوبتان بهما فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات .

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٥٣ .

(٣) سورة الأنعام / الآية ١٣٦ .

(٤) أبسله: من بسل: أى حبس، وقد جاءت هذه اللفظة مرتين فى آية كريمة من سورة الأنعام، ولم ترد فى أى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية الكريمة ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً أن تُبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكسبون﴾ ومعنى تبسل: تُحبس فى النار، أو تُسلم للهلكة .

سابق علمه فيه، فالتفت الى عمله، قايسه[1] بالعدل، فإذا فعل ذلك به هلك واستحق العقاب، لأن العبد لم يأت بطاعة، ولا انتهى عن معصية إلا به، ولربه عليه المنة في التوفيق والعصمة.

فإذا قايس أعماله بهذين غرقت أعماله كلها ، ونفيت النعم عليه، نعم الدنيا، والآخرة. فإنفلق بها، أى شئ يفكه إلا فضله ورحمته ، فإن عمي أحد عما شرحناه فإن الأخبار واردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما حقق ذلك. روى سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال : خرج من عندى خليلي جبريل آنفاً، فقال لى : يا محمد ، إن لله لعبد من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل فى الهجر ، عرضه وهو له مليون ذراعاً فى ثلثين ، والهجر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية ، وأخرج له عيناً عذبة بعرض الإصبع ، بيض له بماء عذب مستبقع[2] فى أصل ذلك الجبل ، وشجرة الرمان هناك ، تخرج كل ليلة رمانة ، فإذا العشاء ترك. فأصاب من الوضوء أخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام إلى صلاته ، فسأل ربه عند وقت الأجل. أن يقبضه ساجداً ، وإلا يجعل للأرض، ولا لشئ يفسده عليه سبيلاً حتى يبعثه ساجداً، ففعل، فنحن نمر به إذا هبطنا واذا عرجنا، ونجده فى العلم أنه يبعث يوم القيامة، فيوقف بين يدى الله تعالى.

فيقول له الرب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول: بل بعملي يارب. فيقول : ادخلوا عبدى الجنة برحمتي، فيقولُ : بل بعملي يارب - فيقول: قايسوا

---

(١) قايسه : من قاس الشئ بغيره يقيسه قيساً واقتاسه قدره على مثاله .

(٢) مستبقع: المكان الذى يُستنقع فيه الماء، أو القطعة من الأرض على غير هيئة التى الى جنبها وأصل الكلمة مأخوذ من البقعة .

عبدى بنعمتى عليه وبعمله، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعم الجسد فضلاً عليه.

فيقول: ادخلوا عبدى النار. فنادى: ربى برحمتك أدخلنى الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه.

فيقول : يا عبدى من خلقك ولم تكن شيئاً ؟ فيقول : أنت يا رب.

فيقول : أكان ذلك قبلك أم برحمتى ؟ ، فيقول : بل برحمتك ، فيقول : من قواك لعبادة خمسمائة سنة ؟، فيقول : أنت يا رب.

فيقول : من أين لك جبل وسط اللجة أخرج الماء العذب من الماء المالح ، وأخرج لك كل ليلة رمانة ، وانما أخرج الشجرة فى السنة مرة ؟ ، وسألتنى أن اقبضك ساجداً ففعلت ذلك؟

فيقول : أنت يا رب ، فيقول : ذلك برحمتى ، وبرحمتى أدخلك الجنة ، ادخلوا عبدى الجنة فنعم العبد كنت يا عبدى، وانما الأشياء برحمة ا لله.[1]

قال أبو عبد ا لله: فهذا شأن عمال ا لله. عملوا على طلب الثواب والهروب من العقاب ، فلم تصف أعمالهم من الهوى، لأن الهرب والطلب مخرجهما من الشهوة ، ثم إن ا لله عز وجل اصطفى من خلقه ما شاء ا لله، فله من كل جنس صفوة، فالعرش صفوته من الملائكة، وجنة عدن صفوته من الجنان، والكعبة صفوته من البيوت ، والأمناء صفوته من الملائكة، والأنبياء صفوته من الأولياء.

---

(١) هذا حديث مشهور، ولعله من الأحاديث التى تشير إلى عظمة رحمة ا لله بعباده، حيث بحثنا عنه طويلاً فى معاجمَ الحديث وفهارسها المعاصرة، وكتب الصحاح وغيرها وقد اهتدينا إليه و لله الحمد فى رواية مطولة أخرجها الحاكم.

والأولياء صفوته من الزاهدين ، والزهاد صفوته من العاملين والراغبين ، والراغبون صفوته من الآدميين. لأنهم موحدون.

ثم قسم العقول بينهم، وشرح صدرهم للإسلام ولنور معرفته هداهم ، فكل مؤمنون ، وكل إنما يقف على درجته ، ثم منّ الله على طائفة منهم بنور أشعله على قلوبهم، فانفسح وانشرح الصدر، وخرج من سأته[1] منتبهاً لا من حليل ووصف عميق، انتبه للخالق البارئ العظيم الشأن، فامتلأ قلبه فرقاً عن عظمة العظيم، وحلاله الحليل، وعز العزيز، فقر ذلك الفرق الهوى عن قلبه، حتى صار بمعزل عن جميع سعيه في أمره ونهيه.

ثم رقا درجة أخرى من الانتباه فوجد النفس بما فيها من الهوى، وباقي الشهوة قد ذهلت عن كل حركة، وميل لما ترايا له في علم الغيب من الملك كبريائه وسلطانه.

ثم رقا درجة أخرى فوجد النفس بما فيها من الهوى وباقي الشهوة الراهلة قد صفا وطاب لما ترايا له في علم الغيب من ملك فرد اليته، فوقع قلبه هناك على مشاهدته.

عرف الأشياء كلها فيه وأذهلته عن الجنة والنار.

وذلك أنهما كانتا للنفس ثواباً وعقاباً، ألا ترى أنه لما ذكر الجنة قال: ﴿وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾[2] - فأي قلب نال فهمه العزيز الماجد الجواد،

---

(١) سأته: خشبه (السأة : الخشبة)
نقرأ قوله تعالى عن سليمان عليه السلام (فلما قضينا الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) سورة سبأ: آية ١٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١ .

وترادفت عليه بابلات بره ومترادفات عطفه، وصلت محبته في ملك الوحدانية منفرداً به، فلم يشغل شغلاً بل تلاشت جميع أحوال النفس دينا وآخرة، وطارت الفكرة عنه فيهم، وإنما يعرف هذا من ماله ويخفى على من حرم ذاك، وسقط عن هذه الدرجة.

فإنما نال هذه الدرجة مناً من الله عليه، وامتلأ قلبه منه وصدره، وأشعل النور في جميع جوارحه، فهو ولهان، عطشان، وحيران، وغضبان، وسكران، يعنى غضبان على نفسه، وسكران. قد أسكن المعنى الذى حل بقلبه عن كل شئ سواه، فأحياه به فمن قلبه با لله ثم رجع إلى أمره ونهيه لم ينقل عليه الانتهاء عن نهيه، والانتهاء بأمره، ولم يستبن في قلبه السرور بالثواب.

وليس من المحال أن من هناك سرور الثواب، وقد امتلأ سروراً بإلهه، وملكه. وكيف يستعظم هذا مؤمن والجنة خلفه، وكيف يستبين سرور القلب بخلقه وسروره بربه، أليس هذا من المحال. إن طلب منه، كان من المحال إن طلبت رؤية نجم من النجوم في قرن شعاع الشمس، فالنجم نوره بمكانه، ولكنه قد تلاشى عن بصر هذا الناظر في جنب نور الشمس. فاذا بعد منه حتى تقترب من الغروب، استبان ضوء النجم، فهذه القلوب تفاوتها بعيد نعيم أهل الجنة.

نعيم أهل الجنة:

ومما يحقق ما قلنا، ما روى لنا: أن أهل الجنة اذا زاورتهم، لم رجعوا لم يلتفتوا إلى النعيم ثمان مائة سنة قد إمتلأت أبدانهم ريا من النعيم، أفتحسب العاقل ازداد من نعيم الأكل والشرب.

وروى لنا عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: يا رسول الله أي نعيم الجنة أفضل؟

قال: النظر إلى وجه رب العزة.

وروى عن ابن عمر رفعه قال:[١] (إذا بلغ النعيم من أهل الجنة كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم الرب – عز وجل – فنظر إلى وجه الرحمن نسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجهه فيقولون: يا أهل الجنة هللوا لى، فيتجاوبون بالتهليل، فيقول فيهم: يا داود فمجدنى كما كنت تمجدنى فى دار الدنيا، فمجد داود ربه.

قال أبو عبدالله فكذلك فى الدنيا وقوفهم بين يديه ينعمهم فى مقاماتهم، ويذهلهم عن الالتفات إلى شئ من الثواب، وهيبتهم له يذهلهم عن الإلتفات إلى العقاب إذا كان الإلتفات إليهما اشتغالاً عنه بالنفس، وبعد ما بين المشغول به، والمشغول عنه ورغبتهم فى الثواب، ورهبتهم من العقاب منكمنة[٢] فى نفوسهم ككمون النار فى الحجر.

ألا ترى إلا إذا قدح بالزند وذنده الذكر. هاجت قلوبهم، فهيهات أن يقف أحد على وصف ما يهتاج من قلوبهم من رؤية الثواب والعقاب، وكيف يقدر أحد وصف ذلك، إنما يرون الثواب من رأفته ورحمته وكرمه وفضله، والعقاب من سخطهم، فبنوره ينظرون إلى الثواب والعقاب، والعمال بنور العطاء ينظرون إليهما.

فكما بين النورين من التفاوت كذلك تفاوتهما فى الخوف والرجاء والرغبة

---

(١) لم نستدل على هذا الحديث الشريف فى كتب الصحاح بلفظه هذا، وإنما وردت أحاديث متواترة عن النظر إلى وجه الله تعالى بألفاظ مشابهة، منها قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم عن صهيب ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم).

(٢) منكمنة: مستترة . يقال: كَنّه كَنّاً وكنوناً واكتنه أى ستره .

والرهبة لا يقدر أحد أن يخاف ويرجو ويرهب إلا بقدر ما يرى، ولا يـرى إلا بقـدر ما يرى من عطاء النور.

فأهل هذه الطبقة قُووّا على صدق التفويض، والتوكل وتصفية الزهادة وصحة الورع. وذروة التقوى. فنالوا بها الرضا عن ربهم، والشكر، ومعالى الأخلاق، لأنهم قد باينوا هواهم وكيف يصدق تفويض عبد وهواه مقيم معه ميِّل معه هكذا وهكذا، وشهوته عاملة فيه.

وكيف يصدق تعيين عبد وموكله وزهده وهو مع الشهوة والرهبة، ولن يستولى على عبد شهوته في وقت طاعته حتى يغلب ذكرها على قلبه إلا وذاك له بمرصد عن المعصية أيضاً وهو خطر عظيم.

وروى عن النبى ﷺ قال: "قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين"[1] وروى عطية عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل: (من شغله ذكرى وقراءة القرآن عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)[2] ، وعن خلد بن معدان قال: قال داود ﷺ ، يقول الله – عز وجل (لأعطين النفس، ولا سائل يسال إلا من أجل نفسه فهو مع الهوى) .

فإذا كان ثواب المشغول بذكره عن المسألة للنفس. أن ينال أفضل ما أعطى السائلين، فكيف وأن المشغول به من المشغول بذكره. هيهات عجز الخلق عن

---

(١) رواه البخارى والبيهقي والبزار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٢) لم يرد حديث صحيح يجمع بين الذكر وقراءة القرآن الكريم فى نص شريف، فالحديث الأول الذى رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم.(من شغله ذكرى عن مسالتى أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين) والحديث الآخر رواه ابن حذيفه عن أبى سعيد الخدرى قال صلى الله عليه وسلم (من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسالتى أعطيته ثواب الشاكرين) .

هذا المطلع العجيب، إلا من خصه الله بصفوته، واصطفاه لنفسه، وجعل هذا العلم هديته.

قال: فشغل المؤمن في دنياه بدنياه وهو ملك من ملكه، قال الزاهد: شغلني ملك الآخرة عن ملك الدنيا كما شغلك أيها الراغب ملك الدنيا عن ملك الآخرة.

وقال الصّديق: شغلني ملكه عن هذين كما شغلكما عن ملكه.

قال العارف: شغلني مالك الملك عن ملكه؛ كما شغلك أيها الصديق ملكه عن هذين، فالأول الراغب مشغول بدنياه، والزاهد مشغول بآخرته والصديق مشغول بملكه، والعارف مشغول بربه فرداً فهو قول رسول الله ﷺ : سبق المفردون؟ قالوا يا رسول الله: من المفردون؟.

قال: الذين اهتدوا في ذكر الله.[١] الحديث

قال أبو عبد الله : والمهتد في[٢] لغة العرب الذى قد اهتد عقله فهو فى هيئة الحرف[٣] حتى يخيل إليك أنه يتكلم إليك بالمهاتر من الكلام كأنه لا يعقل، فالذين اهتدوا في ذكره قد حدت عقولهم عن استعمالهم بما يستعملهم إلههم في

---

(١) ورد الحديث الشريف بصيغة أخرى في صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال صلى الله عليه وسلم (سبق المُفرِّدون) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله تعالى كثيراً والذكرات" .

(٢) أصل الكلمة هذى هذياً، وهذياناً أى تلك بغير معقول .

(٣) الحرف من كل شئ: طرفه وجانبه يقال فلان على حرف من أمره: ناحية منه إذا رأى شيئاً لا يعجبه عدل عنه .

قبضته، فبه يسمعون، وبه يبصرون، وبه يبطشون، وبه يمشون، وبه يعقلـون، فهذا عبد انفرد له قلبه، قد غرق في ملك الوحدانيـة، وانفـرد بإلهـه فشـغله بنفسه عن ملكه، وعن ملك ثوابه وعقابه، وملك دنياه.

فأينما نظر فمعه ينظرونه، وينظرون إليه. لأنه موجود مع الأشـياء التـى هو ناظر إليها، فلم تكن للأشياء دونه سلطان على شغله عنه، لأنه قد أخـذه ربه، فبسلطانه يغلب الأشياء، ويمتنع من الأشياء أن تشغله .

منزلة الشكر والصبر:

قال أبو عبدا لله: سألت رحمك ا لله - عن منزلة الشـكر والصـبر، أيهمـا أعلـى درجة؟ فوجدنا أقوال المتقدمين في ذلك كثيرة.

منهم من قدم الشكر، ومنهم من قدم الصبر، وكـل يرجـع إلى شيء مـن ظـاهر الكتاب، وتواتر الأخبار، وأنا مبين لك إن شاء ا لله ما حصل عندنـا مـن عمـل، ولا قوة إلا با لله.

نظرنا إلى جوهر الشكر والصبر وإلى اسمهما، فإن الأسمـاء دالـة علـى الأشـياء، لأنها إشتقت من تلك الأشياء فوسمت بها.

فأما الشكر فهو رؤية العبد منة ا لله عليه في ذلك، والصبر هو ثبات العبد على مقامه من ربه.

فالشكر جوهر الإيمان، والصبر جوهر الإسلام. وذلك أن العبد إطمأن إلى ربـه فسمي مؤمناً، وسلم نفسه عبداً فسمي مسلماً، وكلاهما فـي وقـت واحـد، وعقـد

واحد، لأن القلب كان في جولان[1] وتردد. طالباً لربه، فلما أدركته الرحمة وجاءه النور والهداية، سكن القلب عن الجولان. فقيل أمن كما اضطرب في وقت الخوف من شي، فلما ذهب ذلك الخوف سكن القلب عن الاضطراب فقيل آمن، فآمن على قالب العربية أفعل، فإنما آمن برب منقاد له، ومطيعه. ولنظم هذه المعاني كلها، فصار مسلماً له نفسه عبوده بالانقياد، فقيل: مؤمن مسلم، فلزمه الأسمان في وقت واحد، ثم أمر بالاعتراف ليحرم عرضه ودمه وماله على الخلق، ويكون اعتراضه بذلك حجة لله على من سواه إذا انتهكوا هذه الحرمة.

فيثبت من أقام الجرمة، ويعاقب من انتهكها، ويأخذ له منهم بحقه، ولو لم يعترف بذلك لم يتم الحجة، ثم إقتضاه الوفاء بهذين الأسمين جميع عمره، ثم وضع بين يديه في جميع عمره أمرين، لا يوجد لهما ثالث.

أمر هو يفعل بك، وأمر أنت تفعله، فأما الذى يفعله فأحكامه في أحوالك التى يتقلب فيها عز وذل، وفقر وغنى، وصحة ومرض، وأمن وخوف، ونعمة وشدة، ورخاء وبلاء، ومحبوب ومكروه.

فاقتضاؤك الوفاء في هذه الأحوال أن يطمئن به قلبك بأفعاله في هذه الأحوال رضا، كما إطمأن به لسانك، فإن لم يقدر على ذلك رضاً لشهوة فيك للأشياء ومنية لها، فالصبر لابد منه وهو ثبات الجوارح على، مقامك فلا تعصيه.

فأما الأمر الذى أمرت أن تفعله فالأمر والنهي، تأتي بما أمرت من الفرائض وتجتنب المحارم، فاقتضاؤك الوفاء بهذا الأمر والنهي فتكون قد سلمت نفسك

---

(١) جولان: اضطراب وعدم استقرار . يقال: جال الأمر في نفسه: تردد . وجال النطاق ونحوه: تحرك واضطرب لسعته . (والجولان): ما تجول به الريح على وجه الأرض من تراب وحصى .

ومالك عبودية إليه، كما أسلمت يومئذ إسلاما، فإذا ختمت عمرك بهذا، وقدمت عليه كنت عبداً قد وفيت له بالإيمان والإسلام، فسقط عنك الوزر والحساب، ومن وفّى ببعض هذا وخلط جاوزت الحسنات والسيئات، ووجب الحساب على حسب التخليط والتصفية، فهذا شرح الإيمان والإسلام وفيه مقنع، وهو قطع لكلام المختلفين فيه، فمن تقدم، قال بعضهم الإسلام والإيمان واحد، قال بعضهم: هما اسمان .

رجعنا إلى ذكر الشكر والصبر، قلنا: فالشكر في اللغة هو انفتاح القلب حتى تترائا لك المنة، تقول العرب: شكر وشكر فهذه من حروف الثلاثية وكلاهما يؤدى إلى معنى واحد. إلا أنه إستعمل هذا في النوع وذلك في نوع، فإذا كشف عن ثابه قيل كشر، وإذا انكشف الحجاب عن قلبه قيل شكر[1].

وهو أن يتصور لك في صدر منة الله عليك في ذلك الشي الذى وضعه لك.

وروى عن الحسن البصرى أنه قال: قال موسى: يا رب كيف شكرك آدم؟ قال: علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره.

فالعلم من العلامة وهو التصور في ذلك، وذلك أن الصدر بيت القلب قد أشرق فيه النور، فإذا حدث فكره أو ذكر شيء، وقع لذلك الشي ظل على الصدر بمنزلة البيت الذى يضي فيه السراج على حائطه، فإذا أشرت باصابعك هكذا فيما بين السراج والحائط وقع لها ظل على الحائط وتصورت تلك الإشارة مثلاً بين عينيك، فينظر إلى عدد أصابعك إن زادت أو نقصت، وإلى صورة وجهك، فكذلك

---

(١) شكر فلاناً: ذكر نعمته وأثنى عليه .

شأن القلب يتصور لك ذلك الشي الذى تردد ذكره على قلبك وقع ظله، فإذا ذكرت الخالق لم يقع لذكره ظل.

لأن الذى أشرق نوره فصار الصدر شعاعاً كله بمنزلة المرآة، إذا لاقى نوره بصرك نور المراة رأيت فيه الجبال، فإذا لاقى نور الشمس صار شعاعاً وإمتلأ البيت من شعاعه، فهذه صفة الشكر واسمه دل على، صفته[1]، وأما الصبر فإشتقاقه من الأصبار[2] وهو أن يتخذ الشي عرضاً ومنه قيل نهى عن أكل المصبور، وهو أن ينصب الشي ليرمى بالسهام. فكان صورة الصبر ثبات العبد لسهام القضاء كالغرض لسهام ابن آدم لا يميل يميناً ولا شمالاً، ولا يزول عن مكانه مولياً هارباً فإن شرط العبد فيما بينه وبين ربه الإيمان والإسلام.

فالتسليم هو قائم بين يديه لحكمه، فإذا جاسهم القضاء ترك المركب وهرب فعصا ربه، من أجل ذلك الحكم الذى حل به، كان قد ترك القيام فالشكر هو رؤية النعمة والمنة وهو بمدحه.

---

(١) صفة الشكر : انه يبدأ بمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم، ومعانى الشكر عندئذ - كما يقول ابن القيم فى مدارج السالكين - ثلاثة: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها فمعرفتها: تحصيلها ذهناً، كما حصلت له خارجاً. وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه، ولا بذل ثمن . والثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص، فالعام وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك والخاص، التحدث نعمته، والإخبار بوصولها إلي من جهته كما قال تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) .

(٢) صبر عن الأمر صبراً: حبس نفسه عنه والصبر التجلد وحسن الإحتمال، ورمضان شهر الصبر، لأنه حبس للنفس عن الشهوات .

والصبر هو صبارك نفسك بين يديه كالغرض ينصب السهام وهو مدحك ففي الشكر إظهار مدحه، وفي الصبر إظهار مدحك، والشكر هو أن النعم ظاهر بها عليك لترى مدحه وتنطق بالحمد له عليه[1] ، والحمد والمدح بمعنى واحد، إلا أن الحمد مستعمل في صنعه، والمدح مستعمل في صفاته، فكأن الرؤية منك لم تؤد بك إلى الحياء منه والخضوع له، والصبر هو أنه إبتلاء ليستخرج خيرك وشرك، فهل ثبت له، وهل تنصب نفسك لسهام غرضه، فكان ما خضعت وتذللت وانقدت من أجل النعيم إنما يظهر صدقك، فالذى ابتلاك به بأنك شكور، تحقق ذلك قوله جل وعلا: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[2] .

فأخرج الصبر على قالب فعال، وأخرج الشكر على قالب فعول، بدأ بالصبر قبل الشكر، لأن بالصبر يظهر الشكر، فالشكر منكمن كالنار في الحجر، والبلاء كالزند يورى النار من الجمر، فإذا اقدحت به الحجر ظهر المنكمن من النار.

---

(١) ثمة فرق بين الحمد والشكر .. فالشكر عرفان الإحسان ونشره، قال ثعلب: والشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل، والشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، واشكر الضرع واشعكر: امتلأ لبناً . واشتكرت السماء: حفلت واغبرت وجد مطرها واشتد .

أما الحمد فهو أعم من الشكر ويكون عن يد وعن غير يد، والحميد من صفات الله، والحمد رأس الشكر، أحمد الرجل إذا رضي فعله ومذهبه، وفلان يتحمد الناس بجوده أى يريهم أنه محمود. ويتحمد عليّ: أى يمن عليّ .

(٢) سورة إبراهيم / الآية ٥ .

فكذلك الشكر هو رؤية النعـم[١] ، والقـدح بـالنعم، وتعظيـم العطـاء، والتذلـل لـه والتواضع لعظمته، وهشاشة القلب، فهذا لله سر في القلب منكمن.

فاذا ضرب بالبلاء فوجد صابراً لا يخرج، فقد امتحن لاسـتخراج خيره الـذى كان فيه سراً، ثم إذا وجد راضياً فقد سالم البلاء، فقـد ضـرب بـالزند الأكـبر حتى أورى جميع ناره.

فدل هذا أن الأمر الجديد إنما هو ما في الحجر من النار، والزند والحجـر ليـس هما ذلك الخطر والقدر، فهذا مثال الشكر والصبر في صورتيهما.

والشكر سرور القلب بنعمة ربك، فربك عندك ممدوح، فإذا ضربت بالبلاء فصبرت فانت الممدوح، والرب لم يزل ممدوحاً، فإذا استعملك بما فيه مدح ربك خالصاً صافياً خير لك من أن تستعمل بما فيـه مدحـك مـع مـدح ربـك فيكـون مزاحاً فإن الثناء من الجزاء، اذا جزيت بشـى فـي الدنيـا فـالحظ هنـاك منقـوص بقدره.

درجة الشكر:

ومن درجة الشكر أن الله أثنى على أنبيائه وأصفيائه. فإنما أثنـى بالشـكر علـى نوح، وإبراهيم عليهما السلام.

---

(١) جاء في هذا المعنى حديث شريف ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه (كتاب الشكر) عـن النعمـان ابـن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(التحـدث بـالنعم شـكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الله والجماعة بركة، والفرقة عذاب .

فقال في قصة نوح: "إنه كان عبداً شكوراً"(١) وقال في ابراهيم: "اجتباه وهداه"(٢) .وذكر من سواهم من الرسل فقال: "كل من الصابرين"(٣) — وخصهما بذكر الشكر مع أن كلهم شاكرون، وعمهم بذكر الصبر مع أنهم كانوا صابرين.

فالشاكر قد ظهر ناره فلا يحتاج إلى قدح الزند حتى يرى، والصابر لابد من أن يكون هناك شئ حتى يستخرج بالزند ناره.

فمنهم من يورى لأنه يابس الباطن من الشهوات، ومنهم من لا يورى لرطوبة الباطن من الشهوات، كما أن الحجر إذا أصابته نداوة فضرب بالزند لم يور .

ومن درجة الشكر أن الله تعالى ذكره في التنزيل، فقال: "أن اشكر لى ولوالديك"(٤) ، وقال في الصبر: "وأصبر لحكم ربك"(٥) وقال: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾(٦) – فاخبر أن الشكر له والصبر للصابرين، فشتان بين أمرين أحدهما له والآخر لك .

ومن درجة الشكر إنه ذكر الشكر فقال: "اعملوا آل داود شكراً"(٧) فالعمل إظهار الشكر، والصبر هو ترك العمل النسبى فذاك عمل، وهذا كف عن العمل، ففى هذا الكف ترك الشهوة، والعمل زيادة، ومن درجة الشكر أنه ذكره فقال:

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٣ .

(٢) سورة النحل / الآية ١٢١ .

(٣) سورة الأنبياء / الآية ٨٥ .

(٤) سورة لقمان / الآية ١٤ .

(٥) سورة الطور / الآية ٤٨ .

(٦) سورة النحل / الآية ١٣ .

(٧) سورة سبا / الآية ١٣ .

"وقليل من عبادى الشكور"[١] .

لأن العاملين له قليل، وأكثر العبيد إنما يعملون لأنفسهم. ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته، وقل من يعمل له على العبودة شكراً .[٢]

وبلغنا أن رسول الله ﷺ — كان يقوم حتى تتورم قدماه بعد المغفرة، فقيل يا رسول الله: أتفعل هذا. وقد غفرلك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً .[٣]

وبلغنا أن إدريس جاءه الملك فبشره بأن الله عنك راض. فسأل الحياة، فقال له الملك: وما تصنع بالحياة؟ قال: أريد أن أعمل لربى شكراً بما رضى عنى .

حدثنا بذلك عبد الله بن أبى زيادة عن سنان عن جعفر بن سليمان قال حدثنا سنان أبو ربيعة قال حدثنى جعفر بن زيد العبدى قال: أتى إدريس ملك من الملائكة فقال: جئت أبشرك أن الله عنك راض، فبكي إدريس، وأخذته نفخة، ثم سأل الله أن يبقيه، فقال له الملك: وما تصنع بالبقاء وقد رضى الله عنك؟ فقال: إنما كنت أعمل لنفسى، فاريد البقاء لاعمل فى الشكر، فبسط الملك جناحه فقال له: أجلس، فجلس على جناحه، فصعد به إلى السماء .

---

(١) سورة سبأ / الآية ١٣ .

(٢) ذكر الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع رجلاً يدعو الله تعالى: فيقول (اللهم أجعلنى من القليل) فقال عمر: ومن القليل؟ فقال الرجل: ألم تقرأ قوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) فقال عمر: كل الناس أعلم منك يا عمر !!

(٣) الحديث ورد فى الصحيحين عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

والشكر فعل الأحرار، والصبر فعل العبيد، وإنما هي عبودية ثم حرية، ألا ترى: أن إدريس عمل في الشكر بعدما رضي عنه وحرره، ورسولنا عليه الصلاة والسلام عمل فيه بعد ما حرره، وغفر له الذنوب ما تقدم منها وما تأخر.

فابتدأ رسولنا عليه الصلاة والسلام الصبر، ثم بالشكر وكذلك بكل ممتحن لنا بالأقل ثم بالأشد، والإمتحان بالصبر أشر منه بالشكر.

ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (لأنا بفتنة السر أخوف عليكم من فتنة الضر)[1] أو قول عبد الرحمن: إبتلينا بفتنة الضر فصبرنا وإبتلينا بفتنة السر فلم نصبر.

فكل ممتحن خرج مستقيماً من النقم فهو أرفع درجة من الذى خرج من الشدة، وهو قول عيسى عليه السلام (فلا عبيد أتقياء ولا أحرار كرماء).

وتأويله أن العباد على ضربين: عبد ولدته أمه حراً كريماً، حراً من الشهوات كريماً طبعه من لين التركيب وصفاء الخلق، وطهارة الروح وحرية الطينة، ألا ترى أن الطين الحر كيف ينفاد للعمل هذه الكريان[2] والجرار، وكيف يتمدد، فمن خلق من ذلك الجنس وطبعه ليناً كريماً حراً، وعبد ولدته أمه كزاً لئيماً[3] ذا شهوات، وذاك لصلابة طينته وقوتها وحدتها وكزازتها.

فأخلاقه كدرة، وروحه كدودة في إستعماله في الجسد بهذه الأخلاق، فإذا

---

(١) لم أستدل على هذا الحديث بلفظه هذا في كتب الصحاح.

(٢) لم نجد لها مرادفاً في القواميس العربية.

(٣) كز الشيء كزاكة: يبس وانقبض من البرد، وفلان كزازة: قل خيره ومساعدته فهو كزٌ، ورجل كز اليدين بخيل.

أدركه الإيمان والخوف من ربه إنقاد، فهو عبد تقى لا يصلح للعبودية الصافية إنما يصلح ذلك للعبادة المازجة فله الجنة والأول وهذا المقتصد، والأول السابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير[١] .

فهذا إنما يعمل على الصبر فى الطاعة والصبر عن المعصية فهو أبداً فى عمره فى أثقال الدين، والأول يخطئ هذه الدرجة إلى درجة المعرفة فربضه[٢] القربة ومعتكفه باب الملك، فهو يعمل على الشكر والمحبة والشوق.

فهو فى بساتين الدين قد إرتفعت عنه أثقال الدين نشط من عقلها، فقال: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾[٣]. ولم نجده قال: وقليل من عبادى الصبور، فالأقل من كل صنف هو الأغر.

ألا ترى أن المؤمنين قليل فى الكافرين، والأتقياء قليل فى المؤمنين، والأولياء قليل فى الأتقياء، والأنبياء قليل فى الأولياء، والرسل قليل فى الأنبياء .

ومن درجة الشكر إنه قال فى تنزيله: ﴿وسنجزى الشاكرين﴾[٤]. وقال: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[٥]. فذكر الأجر لأنه عوض من شدة نفسه ثبت على الشدة على جهة المتاجرة، فأعطاه أجره، والشاكر بذلك له على طريق

---

(١) هذا المعنى موجود فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فاطر : ٣٢ .

(٢) الرَّبَض : ما حول المدينة والمربض: المأوى .

(٣) سورة سبأ / الآية ١٣ .

(٤) سورة آل عمران / الآية ١٤٥ .

(٥) سورة الزمر / الآية ١٠ .

المكارمة، ولبت له على العبودية على طريق السخاء وبنفسه، فذكر الجزاء، والجـزاء مكافاة السيد لعبده، والصابر عامل على جهة التجارة، وإعطاء أجره في الجنة بغير حساب.

لأن الصابر أخذ من نفسه فثبت فأعطى أجره، والشاكر أعطى فتواضع وتكـرم فجزى وأجر الصابر من الجنـة، لأنـه عـوض للنفـس مـن الـذى أخـذ منهـا وجـزى الشاكر بالتواضع رفعة والتكرم كرم، فبعدما بين الأمرين نال ذاك الجنة، ونـال هـذا الرفعة والكرم من ربه.

فقد قلنا: إن هذا الصبر عـامل علـى جهـة التجـارة فـأعطى أجْره مـن الجنـة، والشاكر أعطى القربة، فالجنة عوض عن النفوس التى سلمت إلى ربها فثبت فنقمت فيها، والقربة عوض عن القلوب التى قطعت أسـبابها إلى خالقهـا فهـذا عمـل علـى السماحة والسخاوة بنفسه فن غير تلفت إلى متاجرة.

والصابر عمل له على ما ذكرنا، فـولى جـزاء الشـاكر بنفسـه، فقـال سيجزى الشاكرين وإنهم ذكر جزاء الصـابرين مـن بلـى ذلـك منـه فشـتان مـا بـين الحديـد والحجر .

ومن درجة الشكر أن ضده كفر[1] ، وضد الصبر الجزع[2] ، والكفور ممقوت، والجزع مذنب، لأن ترك الشكر هو من العطاء، وذهاب الرؤية فى وقت الغفلة عن الرب عز وجل، وترك مدحه، وترك الصبر هو أن الشدة أزعجته من مكانـه، فقيـل جزع لما أعجز البلاء، وجزع وعجز بمعنى واحد، إلا أنه مستعمر فى صنـف، وذاك

---

(١) هذا المعنى موجودٌ فى قوله تعالى(لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتهم إن عذابى لشديد) إبراهيم: ٧ .

(٢) هذا المعنى موجود فى قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) إبراهيم : ٢١ .

مستعمل في صنف، فالعجز ضعف الجوارح سقوطه من ذلك العمل والجزع ضعف النفس في الباطن وسقوطه عما أريد من الثبات.

ففي العطاء ترك مدحه وغفلته عن ذكره، وفي الجزع سقوطه عن مقامه، فالأول لعظم خطر، فلذلك صار ثوابه أعظم من درجة الشكر أنه قال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[١] . لأن الصابر يحتاج إلى العون، ولم يقل مع المصلين، لأنه لهم لأن المصلي مقامه مقام الشكر فهو مع الصابرين والمصلين، ألا ترى إلى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[٢] ولم يقل بالصلوة، ولكنه في الصلاة، وهو لانفتاح القلب في الصلاة ووجود القلب لذة القربة، والمناجاة،

وليس هذا في الصوم، لأنه كف عن الشهوات. محتاج إلى عون. فهو مع هؤلاء العون ولهؤلاء في القربة.

ومن درجة الشكر أنه قال عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٣] . وزيادة الشيء من الشيء، فجعل زيادة الشكر شكراً آخر، وذلك أن الصبر إذا رأى المنة عجل الله له في العاجل ثواباً فزاده نوراً، فهو زيادة الشكر فازداد بصيرة، فلذلك بعث له على السير إليه، والوصول إليه .

---

(١) سورة البقرة / الآية ٤٥.

(٢) الحديث ورد في النسائي ومسند الإمام احمد، وذكره الألباني في الجامع الصغير ونص الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال - صلى الله عليه وسلم (حُبب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجُعل قرة عيني في الصلاة) وفي رواية (وجُعلت) .

(٣) سورة إبراهيم / الآية ٧ .

وقال فى الصبر: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[١] ، فوجدنا الشكر ثوابه الزيادة منه، وهو سبب الوصول إليه، ووجدنا الصبر ثوابه من الجنة، والصابرون ثبتوا على أحكام ربهم وتأجلوه، وأثابهم نعيم الجنة، والشاكرون رأوا المنة بذلك النور، فزادهم نوراً وازدادوا بصيرة.

فامتلأت قلوبهم معرفة وبصيرة وعلقت بالنعم، فتمثل هذا فى التصوير، كأنى قلت لعبد لى: أشرت له إلى مكان بعيد منى قف على ذلك المكان بين يدى حتى أرميك بسهامى، فإن ثبت لى، كان فى ذلك علامة صدقك فى تسليم نفسك إلى العبودة. فلم أزل أرميه وهو راسخ القدمين ثابت لا يزول عن مكانه، قد رفع المبالاة عن نفسه، فقد أظهر صدقه فى تسليم نفسه إلى، وإيثارى عليها فأكرمته وهديته، وأغنيته، وأجزلت له عطيته، وأعتقته بما أظهر من صدقه، فهذه صفة الصابرين.

والآخر عبد لى قلت له: قف هناك، فكلما رميت إليه ديناراً فقبله فرميت إليه ديناراً فأخذه ثم رميت آخر رمية أقصر من الأولى، فوقع منه على ربوة فتقدم فرفعه، ثم رميت آخر فوقع دون ذلك، فتقدم فرفعه، ثم رميت آخر فوقع دون ذلك، فتقدم فرفعه ثم رميت آخر فوقع دون ذلك فتقدم فرفعه ثم رميت آخر فوقع دون ذلك فتقدم فرفعه.

فلم أزل أرمي إليه ديناراً بعد دينار، فكل واحد دون الآخر، وهو فى كل واحد يتقدم لرفعه، حتى صار واقفاً بين يدى فى محل القربة، فهذه صفة الشاكر.

---

(١) سورة الزمر / الآية ١٠ .

صفة الصابر:

فالصابر واقف بمكانه يُرمى بالشدائد ليثبت ويظهر صدقه بتسليم نفسه فتعلو رتبته، وتخلص عبوديته، والشاكر يرمى باللطائف والتحف ليدلو فتطهر شرته[1]، والشاكر راكض اليد عدواً تعظيماً لربه بما يصنع به، ومحبة له وشوقاً إليه .

والصابر ثابت بمكانه وفاء لربه، والشاكر يقمع نفسه بالبر حتى يستحى، فرجع إلى ربه، والصابر يقمع نفسه بالبلاء حتى يذللها، فينقاد لربه .

فالشاكر يرجع إلى ربه مسروراً، والصابر يرجع إلى ربه مقهوراً نفسه، فالشكر سرور القلب با لله، وفى الصبر تحير وانكسار، وهو خطر عظيم هذا بالبر والنعم. وهذا بالشدة والبؤس مقهور لأن النفس عليك، وفى الأول معك فيها هنا تعينك، وهناك تعين عليك، إلا أن يعصم ا لله، فتحير وتدهش .

والشكر رؤية العبد بره، لطفه، وجوده، وكرمه، وعطفه، ورأفته، ورحمته، وإحسانه، والصبر رؤية حكمه، والشكر رؤية بر ا لله لعبده، والصبر طلب الصدق من عندَه، والشكر بمنزلة المرهم للنفوس، والصبر بمنزلة دواء المشى، والشكر بمنزلة أدوية الكيمياء يلقى منها مثقال على مائة مثقال من صفر، أو شبه، فتصير ذهباً.

والصبر بمنزلة النار يصفى الذهب ويزيل خبثه لشدة حريقه، ليس له سلطان الكيمياء، والشكر رؤيتك الأشياء له وإمساكك على نوابيه وأموره واحدة، أو لم يأخذه فهو له .

والصبر تسليمك الأشياء إليه من بعد أن حبسته لنفسك، فيأخذه منك، وفى

---

(١) شرته، أى حرصه واشتهاؤه .

الشكر رؤية الحظ من الله، وفى الصبر رؤية النفس: إن الله وجدك محقاً فقط، والشكر إيمان العبد: أن الأشياء له ومنه، والصبر إيمان العبد: بأن نفسه له، والشكر منزلة لا ينالها أهل النار فى النار وهو لأهل الجنة .

والصبر منزلة قد ينالها أهل النار فى النار وإن كان غير مقبول منهم، والشكر باق لأهل الجنة فى الأبد السرمد، والصبر على، البلاء والعافية من فضله .

والفضل من جماله، والبلاء من سلطانه، والسلطان من ملكه، وفى الآخرة غداً للجمال منه لأهل الجنة، والسلطان منه لأهل النار.

فانظر من أين مستخرج العافية، ومن أين مستخرج البلاء والشكر مع فرح القلب بصنع الله؟

والصبر مع ألم القلب منعة النفس بحكم الله، والفرح مركب القلوب فى حال السير إلى الله عز وجل، والوجد من الألم بحر راكد فيحتاج إلى سفينة وريح طيبة .

تم الكتاب بحمد الله

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

* إبراهيم: الشيخ محمد زكى إبراهيم.

أبجدية التصوف، ط. العشيرة المحمدية ١٤٠٣هـ ، القاهرة.

* الأشعرى: أبو الحسن على بن إسماعيل العشرى.

مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. مكتبة النهضة.

* الأنصارى: الشيخ زكريا الأنصارى.

نتائج الأفكار القدسية شرح الرسائل القشيرية، ط. الأميرية، بولاق ١٢٩٠هـ.

* الأهوانى: الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى.

القيم الروحية فى الإسلام ، ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٢٨٢هـ.

* أمين: الدكتور عثمان أمين .

الجوانية، ط. دار القلب، بيروت، ١٩٦٤م .

* ابن الجوزى: الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن .

– تلبيس إبليس، ط . مكتبة نصير بمصر .

– صفوة الصفوة، ط. حيدر آباد، الهند، ١٣٥٥هـ .

* ابن حجر: أبو الفضل أحمد على الكشانى .

لسان الميزان، ط. حيدر آباد، ١٣٢٩هـ .

* ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد .
المقدمة: ط. لجنة البيان العربى .

* ابن رجب: زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين .
اختيار الأولى فى شرح حديث الملأ الأعلى، ط. المنيرية، مصر.

* ابن عجيبة: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسن.
الفتوحات الإلهية، ط. عالم الفكر بمصر .

* ابن عربى: محمد بن على الطائى المتوفى سنة ٦٣٨هـ .
الفتوحات المكية، ط. بيروت .

* ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أبى أيوب بن سعد الزرعى المتوفى سنة ٧٥١هـ .
- الروح، ط. نصير بالأزهر.
- مفتاح دار السعادة وشعور ولاية العلم والإرادة، ط. السعادة بالقاهرة .

* ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ.
تفسير القرآن العظيم، ط. كتاب الشعب بالقاهرة .

* ابن منظور: أبو الفضل محمد بن جلال الدين.
لسان العرب، ط. دار المعارف .

* أبو حفص: الشيخ أبو حفص عمر بن بدر الموصلى.
المغنى، ط. الأزهر، ١٤٠٣هـ .

* أبو الشيخ: أبو محمد عبد الله الأصبهانى .

أخلاق النبى وآدابه، ط. دار السعادة بمصر .

* أبو نعيم: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ٤٣٠هـ .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط. دار الكتاب العربى، بيروت، ١٣٨٧هـ.

* أبو طالب المكى: محمد بن على بن عطية المتوفى، سنة ٣٨٦هـ .

- علم القلوب، ط. مصر، ١٩٦٤م .

- قوت القلوب، ط. دار صادر، بيروت .

* بركة: الدكتور عبد الفتاح بركة .

- الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية، ط. مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧١م.

- فى التصوف والأخلاق، نصوص ودراسات، ط. دار القلم، بيروت .

* التفتازانى: الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى .

ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه، ط. القاهرة، ١٩٥٨م .

* جعفر: الدكتور محمد كمال جعفر .

التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً، ط. دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠م .

* الجيلانى: أبو صالح عبد القادر بن موسى .

- الغنيمة لطالبى طريق الحق، ط. الحلبى، ١٣٧٥هـ .

- فتوح الغيب، ط. الحلبى، ١٢٩٢هـ .

*الجيلي: العارف با لله عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي .

مراتب الوجود، ط. مكتبة الجندي، مصر .

* الحكيم الترمذي: أبو عبد ا لله محمد بن علي المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

- الأكياس والمغترين، تحقيق: الدكتور أحمد السايح، والدكتور السيد الجميلي.

- منازل العباد من العبادة، تحقيق: الدكتور أحمد السايح .

- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح.

- ختم الأولياء، تحقيق: الدكتور عثمان إسماعيل .

- علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامي نصر لطف .

- نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، تحقيق: الدكتور السيد الجميلي، والدكتور أحمد السايح .

* الحكيم: الدكتورة سعاد عبد الحكيم .

المعجم الصوفي، ط. المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٤٠١هـ .

* حلمي: الدكتور محمد مصطفى حلمي .

الحياة الروحية في الإسلام، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م .

* الخراز: أبو سعيد .

الطريق إلى الله أو كتاب الصدق، ط. دار الكتاب الحديثة، ١٩٧٥م .

* الخطيب: الأستاذ عبد الكريم الخطيب .

نشأة التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٣٨٠هـ .

* **الدباغ: عبد العزيز الدباغ .**

الابريز، ط. محمد على صبيح .

* **دنيا: الدكتور سليمان دنيا .**

مفهوم التصوف، ط. مؤسسة الشرق للطباعة، ١٩٨٠م .

* **ذكرى: الدكتور أبو بكر ذكرى .**

تاريخ النظريات الأخلاقية، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٧٨هـ .

السايح: الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح .

- السلوك عند الحكيم الترمذى، ط. دار السلام بالقاهرة .
- الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ط. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .
- هذا هو الإسلام، ط. دار الثقافة بالدوحة .
- عباس محمود العقاد فيلسوفاً، رسالة ماجستير، ١٩٨٠م .

* **السراج: أبو نصر عبد الله بن على الطوسى ٣٧٨هـ .**

اللمع، ط. مصر، ١٩٦٠م .

* **سعد: الدكتور محمد سعد .**

التصوف فى تراث ابن تيمية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م .

* **السكندرى: ابن عطاء السكندرى .**

- تاج العروس على هامش التنوير، ط. القاهرة .
- شرح الشيخ الرندى على الحكم، ط. البابى الحلبى، ١٣٥٨هـ .

* السلمي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى ٤١٢هـ .
- طبقات الصوفية، ط. القاهرة .
* السهروردي: شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبدا لله ٦٣٢هـ .
عوارف المعارف، ط. مصر ١٩٣٩م .
* الشاذلي: الدكتور الشاذلي .
مدى انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة - رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة .
* شرف: الدكتور محمد جلال شرف .
أعلام التصوف في الإسلام، ط. دار الجامعات المصرية بالإسكندرية، ١٩٧٦م.
* الشرقاوي: الدكتور حسن محمد الشرقاوي .
- ألفاظ الصوفية ومعانيها، ط. دار المعرفة بالإسكندرية .
- نحو علم نفس إسلامي، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب .
* الشعراني: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي ٩٧٣هـ .
- الطبقات الكبرى، ط. مصر، ١٩٢٥م .
- تنبيه المغترين، ط. دار إحياء الكتب العربية .
- لطائف المنن والأخلاق، ط. عالم الفكر بمصر .

* صبحي: الدكتور أحمد محمود صبحي .

التصوف إيجابياته وسلبياته، ط. عالم الفكر، الكويت .

* صقر: الأستاذ حامد صقر .

نور التحقيق، ط. دار التاليف بمصر، ١٣٦٩هـ .

* صليبا: الدكتور جيل صليبا

المعجم الصوفي، ط. دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م .

* طاش كبرى زاده: حسام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل ٩٦٢م .

مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط. الاستقلال الكبرى بمصر .

* العروسي: مصطفى بن محمد الصغير

إنتاج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، ط. بولاق ١٢٩٠هـ .

* عبد الرازق: الدكتور مصطفى عبد الرازق ولوى ماسينون

الإسلام والتصوف، ط. دار الشعب ١٩٧٩م .

* عفيفي: الدكتور أبو العلا عفيفي .

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ط. عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٤هـ .

* العوا: الأستاذ عادل العوا .

المذاهب الأخلاقية، ط. بيروت .

* عياد: الأستاذ أحمد توفيق عياد .

التصوف الإسلامي، ط. الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .

* عيسى: الأستاذ عبد القادر عيسى .

حقائق عن التصوف، ط. مطبعة البلاغة، حلب، ١٩٣٠م .

* الغزالى: محمد بن محمد الغزالى .

- ثلاث رسائل فى المعرفة، تحقيق: الدكتور محمود حمدى زقزوق .

- القسطاس المستقيم .

- المنقذ من الضلال .

- منهاج العابدين .

* غلاب:الدكتور محمد غلاب .

التنسك الإسلامى، ط. المجس الأعلى للشئون الإسلامية .

* غنى: الدكتور قاسم غنى .

تاريخ التصوف فى الإسلام، ط. النهضة المصرية ١٩٧٠م .

* فرغل: الدكتور يحيى هاشم فرغل .

أصول التصوف فى الإسلام، ط. الجيلاوى، ١٤٠٤هـ .

* القاشانى: عبد القادر القاشانى .

شرح نصوص الحكم، ط. عيسى البابى الحلبى ١٣٨٦م .

* القشيرى: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، توفى سنة ٤٦٥هـ .

الرسالة القشيرية، ط. القاهرة .

* قميحة: الدكتور جابر قميحة .

المدخل إلى القيم الإسلامية، ط. دار الكتاب اللبنانى، ١٤٠٤هـ .

* القيسي: أحمد ناجى القيسى .

كتاب فريد الدين العطار النيسابورى ومنطق الطير، ط. جامعة بغداد ١٣٨٨هـ .

* الكلاباذى: أبو بكر محمد بن إسحاق البخارى ٣٨٠هـ .

التعرف لمذهب أهل التصوف، ط. مصر، ١٩٦٠م .

* مبارك: الدكتور زكى مبارك .

التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق، ط. المكتبة العصرية، بيروت .

* المحاسبى: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ٢٤٣هـ .

العقل وفهم القرآن، ط. دار الكندى، بيروت، ١٩٧١م .

* محمود: الدكتور عبد الحليم محمود .

- المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلى، ط. دار الكتاب الحديثة .
- فلسفة ابن طفيل، ط. الأنجلو المصرية .
- الفيلسوف المسلم، ط. الأنجلو المصرية .

* مصطفى: الدكتور محمد مصطفى .

- الرمزية عند محيى الدين بن عربى رسالة دكتوراه بمكتبة الدكتور محمد مصطفى .
- علم التصوف، ط. السعادة بمصر، ١٤٠٣هـ .

* المنوفي: السيد محمود أبو الفضل الموفي .

- التمكين في شرح منازل السائرين، ط. دار نهضة مصر ١٩٦٩م .

- جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف، ط. الحلبي بالقاهرة ١٩٦٧م .

* المناعي: الدكتورة عائشة يوسف المناعي .

أبو حفص عمر السهردوري حياته وتصوفه، رسالة ماجستير مكتبة كلية الدراسات الإسلامية (بنات) جامعة الأزهر .

* النجار: الدكتور عامر النجار .

التصوف النفسي، ط. دار المعارف بمصر، ١٤٠٥هـ .

* النجار: الدكتور عبد المجيد النجار .

العقل والسلوك في البيئة الإسلامية، ط. تونس .

* الهجويري: علي بن عثمان الجلابي الغزنوي ٤٦٩هـ .

كشف المحجوب، ط. القاهرة، بيروت .

* الهروي: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري .

منازل السائرين إلى الله عز شانه، ط. الحلبي، ١٣٨١هـ .

* اليافعي: أبو عبد الله اليافعي .

نشر المحاسن الغالية، ط. الحلبي .

فهرست الكتاب